محمود قاسم

اللوحة والشاشة

قراءة في علاقة السينما بالفن التشكيلي

الكتاب: اللوحة والشاشة .. قراءة في علاقة السينما بالفن التشكيلي

الكاتب: محمود قاسم

الطبعة: 2017

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575

فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

قاسم ، محمود

اللوحة والشاشة .. قراءة في علاقة السينما بالفن التشكيلي / محمود قاسم – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

.. ص، .. سم.

الترقيم الدولى: **9 – 492 – 446– 977– 978**

أ – العنوان رقم الإيداع : **14690 / 2016**

قبل أن تقرأ..

في بعض الأحيان، يجد الكاتب نفسه أمام موضوع مختلف تقريبًا عن الفكرة التي بدأ الحديث عنها، وقد كانت الرغبة هي الكتابة حول كيف صوَّرت السينما العالمية حياة الفنان التشكيلي، ليس الفنان المعروف الذي شغفت السينما بتقديم سيرهم الذاتية في عشرات الأفلام، بل هو فنان متخيل، في حالة إبداع،

وخاصة علاقاته العاطفية والإنسانية، لا سيما "الموديل" التي يرسمها، فهذه الموديل دخلت حياة عشرات الفنانين، سواءً ارتبطوا عاطفيًا بها، تزوجوها، أو كانت مجرد "نموذج" عابر يتغير دومًا.

هي علاقة بالغة الأهمية، رأيناها في العديد من الأفلام، على رأسها "تايتانيك" لجيمس كاميرون ١٩٩٧، والفيلم الفرنسي " الغارقة الجميلة "إخراج جاك ريفيت، عام ١٩٩١، وايضاً الفيلم الفرنسي "مونبارناس١٩" حول علاقة موديلياني بنموذجه النسائي الذي دخل حياته، وصارت المرأة مصيره وقدره، والغريب أننا لم نعرف علاقة عكسية، لا في الحياة أو السينما، أي أن تكون هناك فنانة تشكيلية تتخذ من رجل "نموذجًا" ترسمه بشكل متكرر .

المشكلة في هذه الأفلام إنها تعرّضت لمقصلة الرقيب، فالمرأة تكون في أحسن حالاتها كموديل وهي عارية، جسد متناسق، جميل، حاول الفنان إبراز هضابه في لوحته، وقد بدا ذلك دومًا في أعمال الفنانين الذين شغفوا بالعاريات وعلى رأسهم روبنز، وجويا، وموديلياني، ورينوار، وقد حرَّم الناقد دومًا من مشاهدة هذه الأفلام كاملة، بواقع أن الرقابة ظلت تحجر علينا مشاهدة هذه اللقطات بدعوى إنها إباحية، رغم أن الأمر يختلف تمامًا، وقد كنت سعيد الحظ أن قمت بتركيب هوائي فضائي منذ بدايات دخول الفضائيات إلى مصر، وتمكنت من مشاهدة أغلب هذه الأفلام بعيدًا عن أعين الرقيب، وأحسست أنني متميز لقدرتي على مشاهدة ما اعتبروا أنه ممنوع.

موضوع يستحق الكتابة عنه، بل وتكرار المشاهدة والكتابة، وقد يحدث هذا في كتاباتي القادمة، وكالعادة فعندما بدأت جمع مادتي وقعت عيناي على موضوع آخر بالغ الجاذبية، اعتادت المجلات السينمائية المتخصصة على تقديمه للقراء، وهو اختيار أجمل خمسين أو مائة فيلم حول موضوع ما، عن الجاسوسية، التخيل العلمي، الحرب، الرومانسية.

وكان الموضوع الذي فرض نفسه هو حول أجمل خمسين فيلم ذات علاقة الفنانين التشكيليين، سواء الذين كتبنا عنهم في أعداد سابقة أو فنانين متخيلين.. ووجدت أن الموضوع أكثر طرافة وجاذبية، فالناس تحب استخدام أفعل التفضيل، ما هو الفيلم الأجمل، أو الأفضل، كي يكون لديها السبق لرؤيته، أو لقياس درجة الحس الجمالي عند الإنسان،

حيث يمكنك أن تقيس ذوقك الفني، من خلال عدد الأفلام التي شاهدتها من بين الخمسين فيلم المختارة..

والغريب في هذه الاختيارات هو صدقها، وأهميتها بالفعل، وأن اللجنة القائمة بالاختيار غالبًا ما تبلغ حد الكمال في الاختيارات، مما يجعل المرء مطمئنًا إلى هذا النوع من الاختيارات، وليس مثلما حدث في مصر عام ١٩٩٦، وعام ٢٠٠٧ حين اختاروا أفلاما أقل قيمة من بين أحسن مائة فيلم روائي في تاريخ السينما المصرية.

القائمة التي بين أيدينا تضم الكثير من الأفلام التي ذكرناها في مقالاتنا حول جويا، وبيكاسو، وكارافيجيو، ومايكل أنجلو، وتولوز لوتريك، وغيرهم، لكن أروع ما في الأمر أن الفيلم الأفضل على الاطلاق في هذه القائمة هو "الجميلة الغارقة"، كما أن القائمة تضم الكثير من الأفلام غير الأمريكية بالإضافة إلى أن الأفلام حول الفنانين المتخيلين أكثر عددًا من الأفلام التي تعبر عن الحياة الخاصة للفنانين الذين نعرفهم.

لا يمكن أن تنسى ذلك السحر المتدفق المنبعث من فيلم "الجميلة الغارقة"، الذي دأبت القنوات الفضائية العالمية على بثه، وما أجمل أن ترى إحدى أجمل الممثلات الفرنسيات وهي تقف أمام الفنان كي يرسمها ببرود شديد، الممثلة هي ايمانويل بيار، جمال ساحر، تقف عارية أمام الفنان الذي يتعامل مع كل هذه الفتنة ببرود شديد، هو رجل متزوج من امرأة تقدمت بها السن، أدت الدور جين بيركن، وهي التي اختارت له

هذا النموذج النسائي، وتأتي الفتاة كي تتحول إلى عجين صلصال يخلو تمامًا من الحياة والنبض، هي أقرب إلى قطعة حجر نقي، الفنان ينظر إليها من خلال جغرافيا خاصة، يتعامل معها بتحجر واضح؛ هو يرى جمالًا خاصًا، في أنه سوف يرسم هذه الهضاب، وسوف يتحوَّل الحجر إلى كائن مرسوم، وأهم ما في الفيلم أن مشاعر الفنان جسدها ميشيل بيكولي، سوف تنتقل إلى المتفرج، الذي سيجد نفسه يهتم بالحدث، ويكاد ينسى التأمل في هذا الجمال، ولعل هذا يعطي الانطباع الحقيقي لعلاقتنا بالعري، حيث تحوَّل جمال إيمانويل بيار إلى لا شيء رغم كل ما تتمتع به من جمال، بل أن الأمر سوف يصل إلى حد النفور، فهذا الشيء الثمين "الجسد" تحوَّل أمام عيني الفنان إلى أداة جافة للغاية، كأن يرسم الفنان جبلًا، أو منظرًا طبيعيًا.

يستحق الفيلم، لمن شاهد هذا النوع من الأفلام، أن يكون عن جدارة في صدارة الخمسين عمل التي يكاد يفوتها سن الشباب، وما إن تنتهي اللوحة، حتى تنتهي العلاقة الوظيفية، وتستمر الحياة في البيت، فالفنان يشارك باللوحة في المعرض القادم، وعلى زوجته أن تختار له "موديل" جديدًا كي يرسم لوحة جديدة.

الفنان هنا لم يشأ أن تتكرر موديله مثلما رأينا موديلياني، هو لم يسع إلى أن يرسم المرأة نفسها وهكذا تتجدد حياته وفنه..

وكما أشرنا فإن أغلب الأفلام المختارة غير أمريكية، تم إنتاجها في أوروبا واليابان، كما أن الأفلام الأمريكية التي تم إنتاجها، كانت

جميعها حول فنانين أوروبيين، مثل الفيلم الذي جاء في الترتيب رقم ٢ في القائمة حول فانسان جوخ، وهو "شهوة الحياة" لفانسنت مينيللي، عام ١٩٥٧، والطريف أن الأفلام التي تم إنتاجها حول جوخ قد تم اختيار أكثرها وسط هذه القائمة أما الفيلم الثالث في القائمة فهو للإيطالي جوزيه تورنتاي من إنتاج عام ٢٠١٣، بعنوان "أحسن عطاء" ولم نره بعد، وقد اختار المخرج الذي سبق أن قدم فيلمًا عن سحر السينما، العديد من الممثلين الأمريكيين مثل جيوفرى رش، حول فنان لديه الكثير من الوساوس حول مجموع لوحاته.

جاء الفيلم الياباني "توني تاكيتاني" في المرتبة الخامسة من إخراج جون إيشيكاوا عام ٢٠٠٤ حول علاقة فنان تشكيلي بزوجته في عالم تصميم الملابس والأقمشة، وهو موضوع جديد ومختلف في عالم السينما، وأيضًا الفن التشكيلي، حيث أن هذا النوع من الفنانين، قد نقلوا التصميمات الفنية إلى الشوارع، وذلك باعتبار ما يلبسه الناس، خاصة الشباب، ومن ملابس متعددة خاصة في مواسم التغيير، سواء بالنسبة للرجال أو النساء.

وقد توقفت القائمة عند الفيلم الروسي أندريه روبليف، لتاركوفسكي عام ١٩٦٦، وهو فيلم تاريخي حربي، شاهدناه دومًا في عروض المركز الثقافي الروسي، حيث تدور الأحداث في القرن الخامس عشر، والفيلم بمثابة تحويل إحدى الأيقونات الفنية التاريخية إلى أحداث درامية أدخلت تاركوفسكي دائرة المجد.

ومن القرن الخامس عشر في روسيا، إلى القرن التاسع عشر في كوريا من خلال فيلم النيران المرسومة إخراج كوون – تيك ايم حول المتاعب السياسية، والحياتية التي يواجهها فنان عشق رسم الطبيعة، والفيلم من إنتاج عام ٢٠٠٢، أي أننا أمام تنوع، وليس الفن التشكيلي المتميز حكرًا على أمة دون أخرى، أو على زمن دون آخر.

لعل الفيلم الأقدم في هذه القائمة هو "بورتريه جيني" الذي أخرجه ويليام ديزل عام ١٩٤٨، وهو حول فتاة "جينفر جونز" تحوِّل شخصًا عاريًا أحبته إلى فنان، شغف كثيرًا بملامحها، وقام برسمها ليكون الحب هو أقوى سبب للخلق والإبداع في أجمل صورة، وكما أشرنا فإن الأفلام الأمريكية المختارة في القائمة أقل عددًا من الأفلام الآسيوية، ومن هذه العناوين على سبيل المثال: "فانسان وثيو" لروبرت التمان عام١٩٩٠، حول العلاقة الحميمة التي ربطت فان جوخ بأخيه ثيو، الذي لعب دورًا كبيرا في دوره كفنان..

وأيضًا هناك "فم الحصان"إخراج رونالد نيم عام ١٩٥٨، بطولة إليك جينيس، حول فنان تشكيلي يتوصل إلى أن الحزن وآلام الناس، هما المنبع الأفضل للإبداع، وأن البهجة والسعادة لا تصنعان معاناة مثل التي يشكلها الألم في حياة الفنان أو الناس.

لعب الفرنسيون دورًا ملحوظًا في إيواء الفنانين القادمين إليها من كل الأنحاء، خاصة أوروبا، كما قامت السينما الفرنسية بدور بارز للغاية في عمل أفلام حول حياة هؤلاء الفنانين الذين عاشوا فوق أرضها، ومن

هذه الأفلام "عشاق على الجسر" إخراج ليوكاراكس عام ١٩٩١، حول جسر بون نوف الذي كان وحيًا للكثير من الفنانين ليرسموا صورًا للعاشقين، وهم يلتقون هناك في أجمل مشاهد الحب، ويروي الفيلم قصة حب بين فنان تشكيلي يُدعى أليكس، وفتاة التقاها فوق الكوبرى، وتعرض الحب لامتحان صعب للغاية، أمَّا جان بيكز فقد أخرج فيلمه "حديث مع حارس حديقتي" عام ٢٠٠٧، حول فنان تشكيلي يعيش في باريس، ينفصل عن زوجته، ويقرر العودة إلى مسقط رأسه، ويعيش في بيت ريفي، بعيدًا عن صخب المدينة، ويتعلم من جنايني المترل، لديه الكثير من المفاهيم والمعاني التي لم يتعرَّف عليها الفنان في عاصمة النور.

أمَّا المخرج موريس بيالا، فقد توقف عند آخر شهرين من حياة فان جوخ في الفيلم الذي أخرجه عام ١٩٩١، وبالضبط ٦٧ يومًا، وهي فترة القلق الكبرى في حياة الفنان، وقد شد هذا الفيلم انتباه الناس بالدرجة نفسها التي حدثت لفيلم "الجميلة الغارقة"، واهتم الفيلم بعلاقة جويا بحبيبته التي قطع أذنه من أجلها، وأيضًا علاقته بحقول القمح التي كانت مادة خصبة مرسومة، كما قدم الفرنسي جيل بوردوس فيلمًا حول رينوار تدور أحداثه في عام ١٩١٥، ورينوار هنا هو المخرج الشاب جان الذي تأثر كثيرًا بأبيه بيير أوجست رائد الانطباعية، أي أن الفيلم أخرج الابن من عالم السينما إلى الفن التشكيلي، علمًا بأن السينما لم تلتفت كثيرًا إلى سيرة الأب في السينما، أما المخرج باتريس شيرو، الذي رحل في نوفمبر الماضي، فقد قدَّم فيلمه "يمكن لمن يحبني أن يركب القطار"،

حول مجموعة من الأصدقاء يركبون قطارًا إلى باريس لحضور حفل تكريم صديقهم الفنان التشكيلي جان – بابتست.

المخرج الذي تكرر اسمه في القائمة أكثر من مرة، هو البريطاني بيتر جرينوي، الذي تواجد اسمه ثلاث مرات في أفلام تمتعت برؤية تشكيلية متجددة، سواءً من حيث الصورة، أو الموضوع، وقد ظل يقدم هذه الأفلام دون غيرها. من هذه الأفلام "عقد رجل لعبد الداما" عام ١٩٨٢، الترتيب الحادي عشر حول علاقة بين فنان تشكيلي وزوجته، ثم فيلم "بطن المهندس معماري" عام ١٩٨٧، حول مهندس معماري يصل إلى إيطاليا وهناك يصاب بالدهشة والإعجاب عند زيارته لمعرض فني للفنان التشكيلي والمهندس المعماري بوللر، صاحب التصميمات الفنية الجديدة، وقد حقق الفيلم الترتيب رقم ٢٦ في قائمة أجمل الأفلام حول الفنانين التشكيليين.

أما فيلمه الثالث فهو "رقابة الليل" عام "٢٠٠٧" (الترتيب رقم ٥٠)

في إطار بالغ الغرائبية، حول الفنان رامبرانت، ومعاناته في رسم لوحة تحمل اسم الفيلم. ولا شك أن جرينواي يحتاج إلى دراسة منفصلة.

الملاحظ أن مدة عروض هذا الفيلم زمنيًا تتجاوز الساعتين، وذلك من أجل التوقف بالكثير من التفاصيل حول الحياة الخاصة والأعمال الفنية للفنان، سواء كان شخصية حقيقية أو متخيلة..

محمود قاسم

جــويـــا..

الـرق.. والثــورة

سوف تظل الحياة الخاصة للفنان التشكيلي معينًا لا ينضب لاستلهام المزيد من الأعمال السينمائية التي تبهر الناس، وهناك فنانون بأعينهم صاروا دومًا بمثابة المنهل المتدفق لهذه الإبداعات، حيث أن الحياة الواحدة للفنان تصبح منبعًا للعديد من الأعمال الفنية السينمائية في أزمنة متعددة، وثقافات متباينة..

في صدر القائمة هناك بابلو بيكاسو، وفانسان فان جوخ، لكن تجربة الفنان الإسباني فرانشيسكو جويا، أثارت جدلًا فكريًا طوال القرن العشرين، وحتى الآن، حيث أن مخرجين من ثقافات متعددة نظروا إلى جويا بإعجاب شديد، وراحوا يستلهمون حياته من رؤى مختلفة، وقاموا بتدنيس هذه السيرة ولوحات الفنان بشكل لم يحدث قط لغيره من الفنانين، فجويا الذي عاش بين عامي ١٧٤٦، ١٨٢٨، أي قبل ظهور أيديولوجيات القرن العشرين، وتقنيات القرن الواحد والعشرين، صار ثوريًا ومناضلًا من خلال لوحاته.

ليس جويا وحده بسيرته الذاتية، وفنونه الراقية، وموهبته الفذة، ولوحاته الخالده هو الذي أثار الجدل من حوله، بل أن أفلامه السينمائية

التي تم اقتباسها عن حياة الفنان ككل أو عن جزء من هذه السيرة، قد أثارت الجدل بين النقاد والباحثين، فصارت عادة للكتاب، من حيث الاختلاف والاتفاق حول حياة الفنان وأفكاره، وتحولاته..

وأمامنا خمسة أفلام تم إنتاجها على فترات زمنية متباينة وفي بلاد عديدة وهذه الأفلام هي:

١-"المايا العارية **The naked maja**" (١٩٥٨) إخراج هنري كوسته، بطولة أنطوني فرانشيوزا، وآڤا جاردنر.

٢ -جويا (١٩١١) فيلم من ألمانيا الشرقية إخراج كونراد وولف، وهو الفيلم الذي احتفى به نادي سينما القاهرة حيث عرض ضمن برامجه في عام ١٩٧٤.

٣ -جويا في بوردو (١٩٦٩) وهو دراما تاريخية إسبانية من تإليف وإخراج الإسباني كارلوس ســـاورا.

٤ –**Volavenunt** ١٩٩٩ في إسبانيا، من إخرج ڤيباس لونا، عن رواية للكاتب نطونيو لاريتا .

٥ -أشباح جويا (٢٠٠٧)، في الولايات المتحدة، من إخراج ميلوش فورمان.

أي أن الأفلام التي تناولت سيرة حياة الفنان كانت تنتمي – كما أشرنا – إلى ثقافات متعددة وقد أخرج هذه الأعمال مخرجون عظماء من

طراز كوسترا، وساورا، وفورمان، ولعل الفيلم الأشهر هو الذي وزعته شركات التوزيع الأميريكية، وقامت ببطولته آفا جاردنر (النجمة الأشهر، والأجمل في زمن إنتاج الفيلم)، ويتناول العلاقة التي ربطت جويا بامرأة تعرف باسم الدوقة، ارتبط بها عاطفيًا في فترة من أصعب فترات حياته، ورسمها في أكثر من لوحة، لعل أشهرها المايا العارية عام ١٨٠٠، والمايا بكسوتها عام ١٨٠٣، ومن الواضح أن كوستر قد أراد أن يروي قصة اللوحتين من خلال المرأة التي رسمها جويا بالحجم الطبيعي مرتين، ورغم أن التعري لم يكن حدثًا صادمًا في الفن التشكيلي، إلا أن هذه اللوحة أحدثت صدى كبيرًا، وقيل إنها أول تدنيس يصور امرأة عارية بالحجم الطبيعي في الفن الغربي. والفيلم يروي جزءًا من سيرة حياة الفنان وهو في قمة شبابه، وتألقه إبان الزمن الأعظم للنزوات للمايا، أو الماخا، حسب النطق الإسباني، هما دوقة ألبا، والتي قيل أن جويا قد ارتبط بها عاطفيًا، وتسمى أيضًا بالسيدة مانويل دي جودي، وقد صارت هذه المرأة النموذج الذي يرسمه جويا لعدة سنوات، وفي الفيلم الذي تم إنتاجه بين الولايات المتحدة، وإيطاليا، وفرنسا.. نرى كيف تعرَّف جويا على دوقة ألبا وصارت عشيقته.

وكان في أحسن حالاته كفنان وهو يرسمها، وقد كشف الفيلم عن المتاعب التي تعرض لها الفنان بعد أن رسم اللوحتين وذلك باعتبار أن الفنان فضح امرأة من طبقة راقية، تعددت وجهات النظر في اسمها الحقيقي، ولا يزال الموضوع محل جدال حتى الآن وكما أن جويا نفسه قد

تعرض للمحاكمة من قبل محاكم التفتيش الإسبانية، إلا أن الفنان لم يكشف سر المرأة التي رسمها.

إذن، فالفيلم الأمريكي قد توقف عند مرحلة الشباب عند جويا، وما حدث في الواقع للفنان وهو يرسم اثنين من أشهر لوحاته، وحالات العشق والرومانسية، وقد استعان الفيلم بالممثل ذي الأصل اللاتيني أنطوني فرانشيوزا ليقوم بالدور أمام آڤا جاردنر، كي يبقى الفيلم هو الأكثر مشاهدة عن جويا طوال التاريخ السينمائي وحتى الآن.

في ألمانيا الشرقية الشيوعية، تغيَّرت وجهة النظر في جويا، من الفنان الذي يرسم العاريات والكاسيات ورجال البلاط الإسباني، إلى جويا الذي وصل إلى سن الخمسين وصار عليه أن يرسم الناس والشعب، والتغيرات السياسية التي حدثت في إسبانيا، بعد أن وصلت قوات نابليون إلى مدريد، وخلعت الملك فرديناند السابع عام ١٨٠٨، ووضعت جوزيف بونابرت مكانه، لم يعد جويا يهتم إذن بالنساء، ولا بالحكام، ولكنه راح يجوب شوارع بلاده حاملًا مشعلة في الظلام، لكي يرى جيدًا ويرسم لوحات مختلفة عن "المايا العارية" وما يماثلها فراح يرسم لوحات أخرى مثل "مويلات الحرب"، ولوحتين رائعتين تحملان عنوان: "الثاني والثالث من مايو ١٨٠٨" ليعكس في هاتين اللوحتين بشاعة المذابح الفرنسية في شوارع مدريد..

هذا هو المحور الرئيسي للفيلم الذي أخرجه الألماني كونراد وولف عام١٩٧١، المأخوذ عن كتاب ألماني بعنوان: "الطريق الشاق إلى

المعرفة " تأليف ليون فايختافنجر، الذي رأى التحول الحاد لدى الرسام، وتغيره الملحوظ، ففيما قبل تحوله السياسي كان مجرد رسام متميز، لكنه بعد غزو الفرنسيين لبلده، فهم جويا الكثير من المعاني حول الطرق الصعبة للوصول إلى المعرفة والتغير، هذه الطرق مصبوغة أحيانًا بالدم والنضال كثيرًا، ومرتبطة بالشعب بشكل عام، مما حوَّل الرسام إلى مناضل يعرف المنفى، ويسعى إلى المعرفة.

إذن، فأهمية صورة جويا في هذا الفيلم أنه صار فنانًا في حالة تحول، وقد انعكس هذا في لوحاته الجديدة مثل "مصارعة الثيران"، و"النزوات" التي رأى جويا نفسه أنها ميدان لما تغفله الأعمال الرسمية في الواقع، وهي نزوات يتعدى الخيال فيها كل الحدود.

وحسب المقال الذي كتبه الفاروق عبد العزيز في نشرة نادي سينما القاهرة ٢ أكتوبر ١٩٧٤ فإنه في هذه المرحلة من العمر وجد جويا نفسه وعرفها عبر الطريق الشاق الذي استمر يسلكه حتى اضطر إلى اللجوء إلى منفاه الاختياري في فرنسا (باريس ثم بوردو) بعد أن شيعت كلمات الكاردينال – التي حكم عليها التاريخ بـــ "آخر الأساتذة القدامى" باللعنة الأبدية.. كما يشير عبد العزيز أيضًا في مكان آخر من مقاله أن جويا ألقى بنفسه كليًا في خِضم العالم الثوري وكان قد حدد علاقة الفن بالثورة باختياره الانتقال من حالة الوصف الهادئ للطبيعة إلى المشاركة الثورية في تغيير الواقع والتعبير عنه.

وهكذا سوف نرى أن جويا في هذا الفيلم الألماني، صورة مختلفة تمامًا عن جويا في الفيلم الأمريكي، هو فنان صار ناضجًا يرسم واقعًا مختلفًا عن واقع النساء والملوك في القصور المليئة بالأسرار.

في عام ١٩٩٩، قام المخرج الإسباني كارلوس ساورا بإنتاج فيلم تلفزيوني حول تاريخ حياة جويا، وهو الفيلم الوحيد من بين هذه الأعمال الذي تتبع سيرة حياة الفنان منذ أن كان شابًا وحتي رحيله، حيث جسَّد الشخصية الشابة، الممثل خوسيه كورونادو، بينما رأينا الممثل المعروف فرانشيسكو رابال في دور جويا العجوز، حيث تتبع الفيلم جويا منذ ميلاده في قرية أراجون التي تبعد نحو خمسين كيلو مترًا من سرقطة، لأب ريفي ليست له علاقة بالفن في زمن كانت الحركة التشكيلية بمدريد شبه ميتة إلى أن وصل إليها جويا عام ١٧٦٦، وهناك واجه العديد من المشكلات بسبب مغامراته العاطفية، وأصيب في مشاجرة بسبب نزوة، وتم وضعه تحت مراقبة الشرطة، وتمكن من الهروب إلى إيطاليا، ثم عاد هاربًا إلى مدريد للسبب نفسه، وصادف الكثير من الفنانين، وذاع صيته بين كلٍ من مدريد وروما، وصار رسامًا لدى ملك إسبانيا عام ١٧٨٦

كما يتحدث الفيلم عن المرض الذي أصابه بالصمم طوال حياته، وهي المرحلة التي اهتم بها الفيلم الألماني الذي رأى أن جويا الأصم كان يشاهد الأشياء بعينين أفضل مما كان عليه قبل فقدان هذه الحاسة.

حكى الفيلم أيضًا عن لوحات جويا، التي اتسمت بالجرأة في موضوعاتها، والزهور في ألوانها، وعرف النضج الفني في مراحل حياته، وتوقف الفيلم عندما سمي بالرسومات السوداء، كما توقف الفيلم عند حياته في بوردو المدينة الفرنسية التي اتجه إليها واستقر في أواخر حياته بها، ورسم لوحات معروفة مثل: عاملة الحليب من بوردو، وكيف مات دون أن يستكمل بورتريه خوسيه دي مولينا.

هذا الفيلم فاز بالعديد من الجوائز، في مهرجانات إسبانية، منها جائزة أحسن ممثل لرايال، كما فاز بجائزتين في مهرجان مونتريـــال، وجوائز أخرى في مهرجان الفيلم الأوربي.

وهذا يعني أن جويا لم يقترب من سيرته الذاتية سينمائيًا سوى مخرجين أرادوا أن يتعاملوا مع فنان في صيرورة وهو فضلًا عن تميزه في الرسم مزخوم بالقصص المدهشة، والمواقف المتحولة، والتغيرات الحادة، والأفكار العظيمة.

ليست لدينا معلومات عن الفيلم الرابع الذي تم إنتاجه في إسبانيا حول جويا، والذي سبقت الإشارة إليه، لذا سوف نتكلم عن الفيلم الخامس من هذه الأعمال عن الفنان نفسه.

في عام ٢٠٠٧، قدم ميلوشي نورمان فيلمًا من إنتاج مقاطعة كيبل الكندية تحت عنوان: (أشباح جويا) أو (جويا وأشباحه)، وقد اشترك المخرج في كتابة السيناريو مع الأديب الفرنسي جان كلور

كاربير، وقام بالبطولة ستلان مشكارس جارو، بالإضافة إلى بطولة ناتالي بورتمان وخافيار باروبم، الذي جسد شخصية مبتكرة في تاريخ حياة جويا، وهي شخصية شقيقه لورانزو..

نحن إذاً أمام فيلم تخيلي حول شخصية حقيقية، حيث تدور الأحداث عام ١٧٩٢، وهي الفترة التي كانت الثورة الفرنسية تندلع إلى جوار إسبانيا ، ويحكي الفيلم عن جويا مصور العائلة الملكية، وهو الرسَّام الشرعي لكل من ملك وملكة البلاد التي تدور فيها محاكم التفتيش أما الأخ لورنزو فهو يدافع عن أخيه، حيث يردد أن لوحاته تكشف عن الشر في الجانب الإنساني، في هذه السنوات كانت أنيسيس هي الفتاة "النموذج" التي يرسمها جويا في لوحاته، والتي تم القبض عليها واتهامها بالتعصب، حيث أنها لا تأكل لحم الخنزير، وتعترف أن أحد أسلاف أبيها قد تحوَّل من اليهودية إلى المسيحية، ويتم استدعاء لورنزو للسؤال عن الفتاة، ويتم تعذيبه كي يعترف بما يرضي القضاة محاكم التفتيش، وذلك بعد أن تم القبض عليها بشكل تعسفي .

وعندما تسجن الفتاة، فإن لورنزو لا يكف عن زيارتها، ويقرر مساعدتها بأي ثمن، ثم يهرب من السلطات الكنيسية التي تطارده، وبعد خمسة عشر عامًا، تكون محاكم التفتيش قد ألغيت تمامًا، وهذا هو لورنزو يعيش في فرنسا تحت حكم نابليون.

نعرف أن أنيسيس لا تزال في السجن، وأنها أنجبت فتاة أبوها هو لورنزو الذي ضاجعها أثناء إحدى زياراته لها في السجن.

لسنا أمام فيلم عن جويا، بل إن الفنان الإسباني يبدو في خلفية قصة عن محاكم التفتيش في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، حيث يرتبط جويا بإحدى العاهرات، تؤدي دورها نفس الممثلة ناتالي بورتمان، ويقوم جويا بمساعدة أنيسيس على الهروب إلى الولايات المتحدة مع ابنها كي تعيش هناك.

هذا الفيلم جاء علي غير المتوقع ضمن أعمال فورمان، حيث أن الكثير من النقاد وقفوا له بالمرصاد ويبدو أن النقاد ضايقتهم فكرة أن يتحول جويا بكل ما لديه من زخم الحكايات، إلى شخصية هامشية في مقابل التركيز على شخصيات متخيلة تسند إليها البطولة وهكذا رأى النقاد أن جويا قد تم تهميش مكانته، وصار هنا مجرد رجل يساعد امرأة في الهروب دون أن نتعرف على مسيرته كفنان طوال خمسة عشر عامًا، هي سنوات الإبداع والنشاط والتحول .

كامي كلوديل

رجل وامرأة في تمثال واحد

في تاريخ الفن التشكيلي هناك شخصيات بعينها تم الاهتمام بها وتقديم سيرتها الذاتية في أكثر من مناسبة، وعلى رأسهم: ميرانث، و جويا، وبيكاسو، وفان جوخ، وغيرهم من الرجال، فحياة كل هؤلاء كفنان واتساع مليئة بالعلاقات، والتناقضات والغموض، لكن مثل هذا الأمر لم يحدث في السينما إلا عند عدد قليل للغاية، ومنهم شخصية كامي كلوديل..

كامي كلوديل، امرأة نشأت في أسرة من الأدباء والفنانين، وارتبطت حياتها بالفنان الفرنسي النحات السفير أرجست روادان ، وفي عام ٢٠١٣، تم إنتاج الفيلم الثاني من مسيرة حياتها بعنوان "كامي كلوديل ١٩١٥" من بطولة جوليت بينوش وإخراج بروتو ديمون وهو الفيلم الثاني حول هذه المرأة، بعد أن جسدتها العبقرية إيزابيل أرجاني عام ١٩٨٧ في فيلم من إخراج بروتو شوتن، وهو الفيلم الذي قام فيه جيراد ديبارديو بدور روادان، كامي الحقيقية كما تشير صورها وهي شابة، امرأة بالغة الجمال ذات جاذبية خاصة، عاشت في الحياة تسعة وسبعين عامًا بين ١٨٦٤ و ١٩٤٣، وهي نحاته فرنسية وأخت للشاعر والكاتب المسرحي المعروف بول كلوديل، وقد قدر لها أن تعيش قصة حب بالغة

الجنون مع رودان وهي المرحلة أو القصة التي تدور أحداث الفيلمين المذكورين حولها، حيث رأينا كيف يتم تقسيم وتشكيل المنحوتات وسط مشاعر متدفقة ومجنونة.

كل الظروف التي أحاطت بهذه النحاتة ساعدت علي تشكيل عمل درامي متميز، فالفتاة ولدت لأب طبيب أما ابن خالتها فقد كان قس القرية، بما اتفق مع الحياة المحافظة التي عاشتها الأسرة، خاصة أن أخاها الشاعر كان من التجريبيين الذين عملوا على تغيير صورة الشعر الفرنسي في نهاية القرن التاسع عشر، وقد التقت الفتاة بالعديد من الرجال الذين فتحوا أمامها الطريق كي تصبح نحاتة، وهو فن لم تبدع فيه الكثير من النساء.

وقد رحلت للإقامة في باريس رغمًا عن إرادة أبيها، واصطحبت أسرتها معها، وهناك تنقلوا بين عدة مساكن وتمكنت من إقامة "أتيليه" خاص بها، ودرست الفن التشكيلي، وتغيرت حياتها تمامًا عندما التقت بالنحات رودان، وصارت امرأة حياته، وقد صمم لها الفنان منذ بداية علاقتهما العديد من المنحوتات وعاشت في "ورشته" الفنية، فتركت مرسمها، استقرت مع حبيبها، ينحت متأثرًا بوجودها، وتقوم هي الأخرى بعمل القطع الفنية الخاصة بها.

لم تكن كامي كلوديل المرأة التي تعيش تابعًا للرجل، حتى وإن كان في مكانة رودان وشخصيته، فقد سعت إلى تغيير آفاق مرسمها، وقد اشتهر الاثنان من خلال التمثال العبقري الذي يحمل عنوان "القُبلة"

حيث اشترك الاثنان في عمله معًا، وبدوا كأنهما يمتزجان ليكونا فنانًا واحدًا، وروحًا عاشقة، وهي المرحلة، أو القصة، التي اهتم بها الفيلمان اللذان تم إنتاجهما في فرنسا، وسنحاول إلقاء الضوء عليهما.

ولم تكن منحوتة "القُبلة" هي الوحيدة التي امتزجا فيها معًا، بل هناك أيضًا تمثال باب السيد، وقد أعطى هذا التوحد الفني والعاطفي للأعمال التي صنعت بهما معًا روحًا بالغة الصدق مثيرة للغموض للناس والنقاد، وأيضًا للسينمائيين الذين بهرتهم هذه المنحوتات، وما وراءها من قصص، حيث أن العاشقين قد عملا على تجديد ملحوظ في فن النحت من جهة، وأيضًا في أسلوب الحياة الذي عاشاه.

وهي التي تقول: "لدي الكثير من الأفكار الجديدة"، وقد كانت دائمة الرجوع إلى أخيها.

بلغ الأمر من غرابة كامي، أنها قررت ذات يوم أن تهجر حبيبها دون سبب لمجرد التغيير، وأن تعيش في "مود" جديد مختلف، وقد بدت كأنها محبوسة لجنونها الخاص، بعد أن حبست نفسها لفترة غير قصيرة، وكانت في سن الخمسين، عقب وفاة أبيها في مارس من عام ١٩١٣، وأقامت في إحدى المستشفيات، لكن مع اندلاع الحرب العالمية الأولى، تم إخلاء المستشفى من أجل استقبال المصابين فاختارت أحد الملاجئ، وعاشت به حتى وفاتها في منتصف عمليات الحرب العالمية الثانية، بعد أن اشتد بها المرض النعشي، ويقال أن جنونها قد دفعها للإضراب عن

الطعام، فماتت من أثر الجوع، وفي هذا الشأن قال بول كلوديل: "مجانيًا يموت عادة من الجوع."

وحسب موسوعة الوكيبديا، فإن كامي كلوديل تعتبر الآن من أبرز النحاتات في نهاية القرن التاسع عشر ويمكن مشاهدة أكثر من خمسين منحوتة للفنانة في متحف رودان، الكثير منها مصنوع من معدن البروم، مثل: "سن النضج"، و"جذع رودان"، و"التسببة"، و"أفكار عميقة"، و"النالس"، أما المنحوتات الأخرى في المتحف نفسه فهناك، " فتاة مغلقة اليدين"، ومن الرخام "فكرة"، وهناك عدد كبير من منحوتات كامي كلوديل موجودة في متاحف أخرى بباريس ومدن فرنسية أخرى، وقد عملت منحوتاتها لأفراد أسرتها خاصة أختها لويز، ولأمها وأبيها.

وبالإضافة إلى الفيلمين المشار إليهما، فإنه في عام ٢٠١١، قام ثلاثة من المخرجين الإسبان بعمل فيلم تسجيلي عن حياة كامي كلوديل عندما عرض فيلم "كامي كلوديل" عام ١٩٨٨، بدا حدثًا مدهشًا تم استقباله بحفاوة شديدة، في تلك السنوات، كان المخرج بروتو نوتن في أحسن حالاته.

ولا نتذكر أنه عمل قط في فيلم آخر له نفس الحيوية وقد انعكس ذلك على أداء أبطال الفيلم، وهم إيزابيل أوجاني، وديبارديو، والممثل المعروف الآن كوفي الذي جسد دور أبيها، والممثلة مادلين روبنسون، في دور الأم، والفيلم مأخوذ عن كتاب يرصد السيرة الذاتية

للنحاتة من وضع "رين – ماري باري"، وقام المخرج بنفسه بكتابة السيناريو.

وتوقف الفيلم فقط عند الحياة البالغة الخصوصية لكل من النحاتين الفرنسيين، حيث تبوح كامي كلوديل لطبيبها بأنها قد منحت كل نهاراتها ولياليها إلى عالم النحت، ولم يكن الأب راضيًا عن ابنته وكذلك أخوها بول، لكنها راحت تحلم بالدخول إلى ورشة رودان، وكم عانت حتى أثبتت له، إلى أي حد هي موهوبة في الفن نفسه، وصارت مساعدته، وهي تعرف أنه مرتبط بامرأة أخرى تدعي جيسي، لكن سرعان ما وقعت في عشق النحات وصارت ملهمته.

قبل ان تلتقي بالنحات، كان عالمها ينحصر في النحت، وفي الاهتمام بأخيها، وعندما بلغت سن العشرين عام ١٨٨٣، دخلت إلى صومعة أستاذها. لم يهمها أن في حياته امرأة أخرى، فتركت حياتها من أجل أن تكرسها إلى رودان، وتعاون الاثنان معًا، وبدأت جيسي في الانسحاب الهادئ، واستمرت علاقتها بالرجل حتى عام ١٩١٣ أي ثلاثين عامًا، وكما أشرنا في المقدمة، فإن الناس انبهرت بعلاقة حقيقية، جسدها ممثلان جيدان، وكتب أحد النقاد "ما بهرني هو مشاعر امرأة متدفقة من أجل رجل وحيد، ما أروع الحب."..

والفيلم الفرنسي الذي رُشح للحصول على أوسكار أحسن فيلم أجنبي عام ١٩٩٠، كان قد حصل على العديد من جوائز سيزار في فرنسا منها جائزة أحسن ملابس، وأفضل ديكور، وهو يشير إلى ان

رودان كان في الثانية والأربعين عندما دخلت كامي حياته، يكبرها بثلاثة وعشرين عاما، كان فنانًا أكثر تقدمية من زملائه الذين جددوا في الفن التشكيلي، يحتوي في نحته مهارة خرافية، "بينما نحتنا في عشرينيات القرن الماضي وثلاثينياته" كما قال أحد تلاميذه مشيرًا إلى القرن التاسع عشر.

عندما قرأ المخرج النص الأدبي المكتوب عن كامي كلوديل، كانت هذه النحاتة قد دخلت إلى دائرة النسيان لكن جملة استدعت انتباهه جاءت على لسان المرأة التي قالت: "بدلًا من ان تلمسوا منحوتاتي يجب أن تلمسوني أنا وأن تداعبوني، ولكن يجب أن تعرفوا إذا كانت أعمالي سوف تمنحك بعض القوة"، مثل هذه الجملة تعطي الإحساس عما كانت عليه الفنانة في عنفوان عملها، وهي التي دخلت المصحة النفسية، وقد ارتبطت الفنانة برجل إذا جاء ذكر سيرها، ارتبط هذا الاسم باسم رودان، والعكس صحيح، فأنت حين تتصفح المكتوب عن رودان، فإن المذكور حول تأثيره على تلاميذه هو الموجود غالبًا، لكن لا شك أن الدراما السينمائية سوف تهتم بما حدث بين الرجل وعشيقته، التي كانت أيضًا نموذجه الذي ينحت على غراره، يقوم بتعريته أو وضعها في الصورة التي يرغبها، وفي الفيلم كما في الحياة، فإن كلوديل الأخ قال معلقًا: "هذه الشابة العارية هي أختي! أختي كامي وقد تعرضت للإذلال، وركعت عارية على ركبتيها."

لكن هذا النوع من النساء لا يتعرض قط للخشوع، فما تعرف أن هذا الركوع هو لعمل "نموذج" فني، سيعيش سنوات وترونه، فقد

كانت صديقة دومًا لعظماء عصرها من الأدباء والفنانين، مثل فيرلين، ومالارميه، حتى وإن كانت تلميذة، ويحكي الفيلم هذه العلاقة بين اثنين من الفنانين، فهي "ترقد" من أجل أن تحس أن هنالك عيني فنان تراقبانها، وتعيد تجسيدها، مثلما هي تفعل أيضًا في منحوتاتها، صار على السينما الفرنسية نفسها أن تنتظر ربع قرن كي تعود مرة أخرى لتقدم مرحلة أخرى من حياتها في فيلم بعنوان: "كامي كلوديل ١٩١٥" من إخراج بروتو ديمون، وبطولة جوليت بينوش، وجون لاكفينسينت، وروبير ليروا، هذه المرة لم يعد هناك رودان، ففي عام ١٩١٥، كان الجنون قد أصاب كامي كلوديل تمامًا، واتفق أعضاء الأسرة أن تدخل المرأة إلى المصحة العقلية، كي تظل هناك ثلاثين عامًا، في مكان ليس فيه تماثيل أو نحت، وفي الملجأ، تعيش المرأة في أسوأ الظروف النفسية، ويصبح عليها أن تعيش إلى جوار النافذة تنظر إلى الأفق عليها أن تترقب وصول شخص عزيز عليها أنه شقيقها الشاعر المسرحي بول كلوديل "أداء جاك لوك فانسان"، لقد صار في حياتها أشخاص مختلفون، ليس لأحد منهم علاقة بالنحت، منهم طبيبها (روبير ليروي)، وأيضًا القس الذي يعلمها المزيد من النصوص التي تدفعها إلى الراحة، هذا الملجأ موجود في جنوب فرنسا، وفي الشتاء يكسو الجليد المكان، فيتسم بقسوة ملحوظة ويبدأ الزمن في فقدان قيمته، فلا معنى للانتظار

وفي هذا الفيلم قدم المخرج مرحلة عمرية أخرى من حياة كامي كلوديل، لا يعرف عنها أحد شيئًا، حيث دخلت المرأة إلى المجهول في الفيلم، كما تأتي أهمية الفيلم من تصويره لتفاصيل الحياة في مثل هذا

النوع من الملاجئ، فالنزلاء هنا لا تعرفهم الشهرة ولا أمل في علاجهم وسيموتون حتمًا عندما تزداد حالتهم سوءًا، إلا أن كامي كلوديل ظلت تقاوم حتى بلغت سن الثامنة والسبعين..

الأيام الأخيرة..

حياة موديلياني

أجمل ما في السينما أنها تمثل بالنسبة لنا حزمة من الذكريات التجميعية التي لا تخص الفيلم وحده بل ما يمثله الفيلم من مكانة فنية والأشخاص الذين كانوا في صحبتنا وأيضا الشخصيات التي في الفيلم من الداخل والخارج، ولعله في بعض الأحيان أن تكتب هذه الأفلام بذكرياتها من تجريدها وهو ما يجعلنا نرى الفيلم متداخلًا مع ذكريات حية لن تعود.

كم أحببت فيلم "مونبارناس **19**" إخراج جاك بيكر لعدة أسباب أنه من تمثيل ممثل كان هو الأهم في السينما الفرنسية طوال سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية، الذي كنا نحرص بقوة على مشاهدة أفلامه في المركز الثقافي الفرنسي بالإسكندرية، وكم سحرنا في "المتكابرون"، و"علاقات خطرة" و"فانفان لاتيوليب" و"المناورات الكبرى" وغيرها، وكان أشبه بالروائي ألبير كامي الذي قلب علينا حياتنا فصار قبلتنا في الحياة.

أما الفيلم فهو جزء مأساوي من حياة الفنان الفرنسي ذي الأصل الإيطالي أماديو موديلياني الذي أتحفتنا مجلة الهلال بنشر تحقيق عنه

نشرت أعماله بدون أي مقص رقيب فرأينا النساء العاريات ذوات الرقاب الطويلة والنهود المتماسكة، مثلما لم نر النساء في أي مكان حتى نساء روبتز.. المصادفة هي التي جعلتني أشاهد فيلم "مونبارناس**19**" علي القناة الفرنسية تي في وشدنا الفيلم بسحره وإن كنت لم أتيقن أي نسخة من الفيلم نراها هل هي النسخة الكاملة من الفيلم أم النسخة التجارية.

نعم.. هو فيلم الذكريات استولى عليه جيرار فيليب بقوة فضاعف تعاطفنا مع موديللياني الموهوب الفقير الذي رفض أن يبيع لوحاته في المزادات ولتجار اللوحات خاصة ذلك الأمريكي الذي جاء يلملم لوحات الفنانين الباريسيين وكأنه يشمت فيهم، أو ذلك التاجر موريل الذي أقسم أن يمنع كل التجار من شراء لوحات الفنان الشاب المعدم وهو على قيد الحياة وصار له ما أراد.

موديلياني اضطر أن يتنازل عن كبريائه، وأن يبيع اللوحات بسبب مرض حبيبته التي عانى الأمرين من أجل أن يتزوجها، ورغم أن أسرتها الموسرة قد أخذته إلي بيتهم في باريس وحرم منها فإنها عندما هربت منهم ارتضت أن تعيش في غرفة ضيقة مليئة بروائح الألوان وتعاملت مع هذا المترل المتواضع على أنه الأكثر اتساعًا في كل الكون، نعم ما تجلبه لك مشاهدة الفيلم هو أن النجوم الشباب في الفيلم صاروا بعد رحيل جيرار فيليب الأكثر شهرة في السينما الفرنسية، ومنهم آنو كايميه التي جسدت دور الحبيبة جين، ولينوا فنتورا الذي جسد دور تاجر اللوحات موربيل، بالإضافة إلى العشيقة ليلي بالمر التي جسدت دور

العشيقة بياتريس، التي ترعاه في كل حالاته، تهبه مالها وجسدها، وتساعده في أن يعود إلى حبيبته وتشجعه على الرسم وتزوره في الحانة التي يقيم بها.

هكذا صور الفيلم العامين الأخيرين من حياة الفنان كان شابًا صغيرًا في السن، مات أيضًا في هذه المرحلة من العمر مثلما حدث لجيرار فيليب الذي مات بعد عامين فقط من عرض الفيلم بسرطان سريع المفعول في فعل القتل، وكأننا نرى توحدا بين الرجلين في المصير والنهاية المأساوية والشهرة الخالدة مع وجود بعض الفوارق رجل مثل هذا الموديلياني وسيم موهوب لابد أن تحوطه حفنة من النساء يمثلن باريس في العقد الثاني من القرن العشرين مجتمع سلفي ملئ بالعاهرات الباحثات عن متعة عابرة لكن لا مانع من الوقوف إلى جوار هذا الموهوب الذي يعيش برأسماله وألوانه فيما بينهم، ومن أبرزهن في الجزء الأول من الفيلم بياتريس ابنة الطبقة الموسرة التي تكبره في السن وتحبه فيما هو أقرب إلى الصداقة تحاول أن تقيه عثرة التسول، فلما اختفت من حياته اضطر الشاب إلى الذهاب إلى الحانات ليرسم للناس بورتريهات سريعة مقابل قطع معدنية لم يتمكن من الحصول عليها ولم يتمكن من العودة إلى الدار حيث تعاني جان من سكرات الموت ويموت كل منهما تحت سماء ليل نفس المدينة لكن ليس أبدًا تحت السقف نفسه.

بياتريس هذه تمثل بالنسبة له الجانب البهيمي الذي يحبه في النساء ويفسر سبب قيامه برسم النساء بهذا القدر من العري كان يضربها أثناء

الجماع فتستعذب ما يفعله دون أن تعترض، وهي كما قلنا كانت سعيدة عندما قابل قصة حبه البريئة متمثلة في جين فساعدته أن يبحث عن حبيبته وأن يعود إليها.. بياتريس كانت تريد جسد الفنان وتريد أن تكون واحدة من عشيقاته اللائي يرسمهن ويخلد وجودهن في التاريخ.

وفي حياة موديلياني الكثير من النساء اللائي غيرن من أدوارهن بعد أن صار أميليو عاشقًا، ولم يكن هذا بسبب الجنس وحده بل أيضًا بدافع الشفقة والاقتناع بموهبة الشاب فهناك أيضًا الجار الذي يدفع إيجار الغرفة التي يعيش فيها الفنان مع لوحاته ثم مع زوجته والذي يدافع عنه دومًا، وفي المقابل فإن جامع اللوحات موريل يقسم ألا يبيع الفنان أيًا من لوحاته طالما هو على قيد الحياة فهو يدخل أحد المعارض المشتركة كي يفسد عليه صفقة وينبه رجال الشرطة أن اللوحة التي في واجهة المعرض تصور امرأة كاملة العري ما يدفع بالشرطة لتحذير صاحبة الأتيليه من وضع اللوحة في هذا المكان ما يعكس الأوضاع الاجتماعية في هذه الفترة ..

يمكنك أن تتخيل أن الرواية التي كتبها ميشيل جورج ميشيل هي حول النساء الكثيرات اللاتي رسمهن الفنان في حياته القصيرة لكن الحقيقة أن الرواية والفيلم حول السنتين الأخيرتين من حياة موديلياني، وقد جعل من جان الشخصية المحورية فهذه الفتاة ذات الوجه الملائكي التي هي أقرب في براءاتها إلى مريم فخر الدين في تلك الحقبة من الزمن، عرفت معه حبًا ملائكيًا، وفقرًا مدقعًا وآلامًا بلا أي نوع من الشكوى، لقد

سعت إلى تطهيره بالمعنى المألوف فهو ابن الحانات التي لا يتوقف عن إمداد جسده بمن وما فيها: النساء والخمور إلى حد الإدمان، ولعلك لو شاهدت صور موديلياني الضامر في الصور وجيرار فيليب موفور الصحة في تلك الأونة فإنك سوف تدهش، ولكنك لا يمكن أن تتصور أي ممثل آخر غير فيليب الذي كان رجل مسرح في المقام الأول يكسب شخصياته مأساوية ومنهم كاليجولا مثلًا.. لقد عبرالممثل عن معاناة بطله فهو ليس سوى ابن البيئة التي ولد وعاش فيها.

وفي الفيلم فإننا لم نر الفنان يرتبط بأي صداقة مع الفنانين من العصر نفسه، ومنهم التكعبيون والداديون وهو الذي ظهر قبل وقت قليل من السرياليين الذين ملأوا حنايا باريس فيما يشبه المجموعات، أما هو فكان حالة فردية بالغة الخصوصية، هو مدرسة لا يقلد أحدًا أو يترك التلاميذ ولذا فإن الفيلم يهتم بالعنصر الإنساني أكثر من اهتمامه باللوحات التي تركها لنا كانت هؤلاء النسوة اللائي ملأن عالمه أقرب إلى الملائكة الحارس وليس فقط بالنسبة للجنس أو أن يملأن لوحاته بنماذج إنسانية حية، فإذا كانت جان قد قامت تمامًا بتطهيره من خلال حبها الشديد له، وتوحدها معه فإن بياتريس كانت تريده أن يبقى شخصًا طبيعيًا، وكم حذرته أنه بتعاطيه هذا الكم من الكئوس فإن حياته سوف تنتهي كفنان، وكأنها بذلك تحذره من المصير المأساوي الذي سيحل به، وتلك الميتة التي حلت به فقد انتهى كفنان وهو يضطر أن يعرض على مرتادي الحانة أن يرسم لهم بورتريها.. إنهم جميعا سكارى مثله لاهمهم

الرسوم بقدر ما كان كل واحد منهم في عالمه فيقوم بنثر الأوراق المرسومة بالوجوه في الهواء، قبل أن يسقط صريعًا تحت عيني موريل.

ورغم ذلك فإن موديلياني لم يكن ماجنًا وهو الذي أمن بأن يرسم النساء بلا رتوش بجمالهن الطبيعي، أما موربيل فقد أسرع إلى بيت موديلياني كي يأخذ توقيعًا من الزوجة بشراء لوحاته، فوجدها فد فارقت الحياة.

هذه القصة بشكلها المأساوي الإغريقي أعجبت المخرج الفرنسي اللامع ماكس أوفيليس فدفع بها إلى كاتب سيناريو محترف وشرع في إخراجها، لكن يبدو أن هناك أعمالًا فنية ذات صبغات قدرية مثل موضوعاتها حيث رحل المخرج وهو يخرج الفيلم فقام بتكملته مساعده جاك بيكر ليقدمه، ونحن لا يمكن أن نتكهن شكل الفيلم بتوقيع أوفيليس لكن بيكر مخرج متميز أيضًا وقد استعان بابنه جان بيكر ليساعده بالإضافة إلى عدد من أبناء عائلته.

تأتي أهمية الفيلم في المقام الأول من إكساب وجه موديلياني قناع جيرار فيليب الذي جسد شخصيات عديدة من تأليف دوستويفسكي وجوته وكورني بين السينما والمسرح، وإمعانا في المأساوية فإنه قد تم إلباسه زيه المسرحي في شخصية رودريجو من مسرحية "السيد كفكن قبل موارته مثواه الأخير."

هي حكايات تزيد من احساسك بمأساة موديلياني الذي لا يمكن فصل ابداعه كفنان تشكيلي عن حياته الخاصة، وماذا فعلت المشروبات الكحولية والنساء والمخدرات والأموال الشحيحة بحياة الفنانين الذين ماتوا في ظروف مأساوية والأن تباع أعمالهم بملايين الدولارات في صالات المزادات في العالم.

رجل وامرأة .. وبينهما لوحات

يا له من عصر جميل، تلقى أبناؤه الثقافة من جوانب متعددة..

على صفحات مجلة "الهلال" كتب عنه بدر الدين أبو غازي مقالًا رائعًا، ونشرت المجلة لوحات لنساء فاتنات ملونات الصفحات دون النظر إلى أن تكون جريئة من عدمه، فقد توغل الفنان التشكيلي دومًا أسفل الملابس،

مثل خارجها دون أن يحرك ذلك غرائزه، وفي نفس الفترة عرض الفيلم الفرنسي الشهير "مونبارناس ١٩" حول الفنان نفسه في المركز الثقافي الفرنسي بالإسكندرية والقاهرة، وذهبنا إلى هناك لمشاهدة جزء من هذه الحياة الزاخرة التي عاشها الفنان الإيطالي الأصل موديلياني الذي اختار فرنسا ليعيش فيها الجزء الأكبر من حياته.

كانت الصدمة أنني اكتشفت أن الفيلم الفرنسي الشهير الذي أخرجه جاك بيكر عام ١٩٥٧ حول موديلياني غير موجود على النت، بل أن موسوعة الويكيبيديا قد ذكرت عشرين كلمة لا أكثر عن قصة الفيلم، وكان السؤال: هل ضاع الفيلم؟ أم هل ضاع فقط من الذاكرة، رغم أن عناصر عديدة شاركت في نجاحه، ويكفي أن جيرار فيليب، صاحب أهم رصيد في تجسيد أفلام ومسرحيات فرنسا في القرن

العشرين، هو الذي جسد شخصية موديلياني، بالإضافة إلى أهمية الفنان التشكيلي نفسه، ومكانة جاك بيكر.

الفيلم ليس مجهولاً بالمرة بالنسبة للسينما الفرنسية، فهو فيلم حديث نسبيًا قياسًا الى الأعمال التي تهمل، أو التي يكتب منها مختصرًا بسيطًا، وبدا لأول مرة الفارق بين ما يأتي من معلومات متسعة في نفس الموسوعة عن الإنجليزية الأمريكية، وتلك التي وجدناها عند موديلياني الفيلم، فهناك كتابات غزيرة للغاية عن فان جوخ والفيلم الأمريكي المأخوذ عنه في العام نفسه باسم "شهوة الحياة" إخراج فانسانت مينيللي، وبين ما جاء من معلومات حول فيلم "مونبارناس١٩" لذا فليعذرنا القارىء، أن نعتمد على المرتين اللتين شاهدنا فيهما الفيلم منذ أكثر من أربعين عامًا في المركز الثقافي الفرنسي.

موديلياني الذي لابد أن يبهرك بالبورتريهات، والأجسام الحافية، ومساحات الوجوه والأجسام، قد جعل للبشر – خاصة النساء – طولًا مميزًا، كأنه رسم موديلاته من وراء مرآة مقعرة بشكل خاص، وبدت الوجوه كأنها ترتدي أقنعة من بشرة خاصة تكاد أن ترى الحقيقة من ورائها.

السيرة الحياتية لرجل عاش عمرًا قصيرًا، لم يتجاوز سن الخامسة والثلاثين، مليئة بالزخم والموهبة والتدفق، كأنما الفنان كان يدرك مسبقًا أنه لن يعيش طويلا، فحاول اغتراف الدنيا بين يديه، ينطلق كثيرًا ويرسم أكثر، مثل أغلب الفنانين الذين عاشوا أعمارًا قصيرة، يسعون أن تكون

لهم أكثر من حياة، اسمه أميديو هو الابن الرابع لرجل أعمال أصابته حمى الإفلاس، فوجد الطفل نفسه في أسرة عرفت الفقر بعد القدرة، وسرعان ما دهمه التيفوئيد والدرن، قبل أن يبلغ سن الشباب المبكر، وازدادت المآسي في حياة أميديو جان دخل أخوه السجن لمدة ستة أشهر بتهمة الفوضوية ..

والتحق أميديو بما يسمى المدرسة الحرة لفن العري، في فلورنسا، ولعل هذا يفسر لجوء الفنان إلى هذا النوع من الرسم، فتميز فيه، ثم التحق بمعهد الفنون في البندقية، قبل أن يتوجه عام ١٩٠٦ إلى باريس، بؤرة أغلب الفنانين التشكيليين من كل أنحاء العالم.

كان لابد أن يعثر سريعًا على أساتذة له، يؤثرون فيه ويتعلم منهم، ويصبح رفيقا لهم، ومنهم تولوز لوتريك، وبول سيزان، كما أعجبته المرحلة الزرقاء في حياة بيكاسو، وعرف موديلياني بنشاطه وسرعة الإنجاز وقد ردد من كانوا على مقربة منه، أنه يخرج العري من داخله إلى لوحاته، إلى الخارج كي يراه الناس.

ومنبارناس الذي عنون به الفيلم، هو اسم المنطقة التي عاش فيها موديلياني منذ عام ١٩٠٩، حتى وفاته عام ١٩٢٠، في استوديو فقير قام بتأجيره، ليصبح مسكنًا، ومرسمًا، وحياة مع بعض النساء اللاتي جئن إلى هناك خاصة آن هيبوترن التي عاشت معه السنوات الأخيرة من هذه الحياة، وهي الفترة القصيرة التي ركز عليها الفيلم الفرنسي وأيضًا الفيلم الأمريكي الروائي.

في السنوات الأولى من حياته اهتم موديلياني بالنحت، وقيل أنه الوريث الفني للنحات بول جويوم، وقد انعكست في لوحاته ثقافته العريضة، وقد انجذبت إليه الشاعرة الروسية الشهيرة آنا أخمانوفا فارتبطا معًا بقصة حب عاشت خلالها في باريس، كما أن التنوع الثقافي بدا لدى الفنان حين اكتشف الفن الزنجي في متحف الإنسان، وانبهر بالوجوه الحادة في شكل الأنف والأذن، وهاله كيف تتمدد الأجساد الأفريقية الطويلة، ولعل هذا قد اتضح بوضوح في لوحاته التالية، وقد بدا هذا التأثير واضحًا في المعرض الذي شارك فيه بلوحات عام ١٩١٢.

لم تعوقه أمراضه المتعددة، وهو الشاب الصغير عن الاندفاع في الرسم، لكن هذه الصحة المعتلة وقفت ضد تجنيده في الجيش للمشاركة في الحرب العظمى الأولى، ولكنها لم تقف ضد مغامراته النسائية الكثيرة التي توقفت فجأة بسبب دخول جان هيبوترن حياته، وهي الفترة التي ركز عليها بقوة فيلم جاك بيكر، حيث أنه حوَّل قصة عاطفية بين امرأة يائسة، ورجل مريض يقترب من الموت، أكثر منها علاقة بين فنان وامرأة.

وهذا هو موضوع فيلم "مونبارناس ١٩" حيث تأتي بياتريس إلى دار الفنان المليئة بالفوضى كي يمنحها ملامح مدام بومبادور في إحدى لوحاته، كان الكحول قد لعبت برأسه فصار عنيفًا، بالغ الحدة، يحتاج إلى من يتحمل سلوكه، لا أن يرده، وهكذا كانت جان هيبوترن التي جسدت شخصيتها الممثلة آنوك إيميه، لكن ما إن يتخلى الرجل عن

عنفه، يصير شخصًا رقيقاً أقرب إلى الطفل، لا يجيد تجسيد مثل هذا الرجل سوى جيرار فيليب، الذي جسد العديد من الشخصيات السينمائية.

كان شاعرًا بالفطرة، يحفظ القصائد الجميلة ويرددها، وكشف الفيلم عن العلاقة التي ربطت بين مودي، وبين أسرة الشاعر البولندي ليبولدزبروفسكي، والذي رسم له الفنان العديد من اللوحات مقابل أجر عشر فرانكات لكل لوحة.

وقد رد الشاعر البولندي الجميل لصديقه، فعرفه على تاجرة لوحات تسمى برت فيل، نظمت له أول معرض خاص بلوحاته فقط، وقد واجهت بعض لوحات الفنان مشاكل حين عرضها في المعرض، فردد هؤلاء: العاريات مصنوعات من زغب، كما أن الشاعر البولندي أرسل صديقه الفنان إلى نيس من أجل قضاء فترة نقاهة في صحبة الفتاة جان هيبوترن التي ولدت له هناك ابنتهما جيوفانا، هذه المرأة التي لم تحتمل وفاة مودي في يناير ١٩٥٠، فألقت بنفسها من الدور الخامس بنافذة مسكنها.

هذه الابنة المولودة عام ١٩١٨، التي قامت عمتها بتربيتها، هي التي كتبت السيرة الذاتية عن أبيها، الفيلم كان من المفروض أن يكون من إخراج ماكس أوفيلس، لكن هذا المخرج الكبير رحل قبل أن يبدأ العمل، وبدا إلى أي حد يطارد الفيلم، وصاحبه نحس، يلحق به ميتًا، ولم يتركه إلى جثة هامدة في الحياة.

وأسند إخراج الفيلم إلى جاك بيكر الذي أضاف الكثير للسيناريو القديم وأهدى الفيلم إلى روح أوفيلس.

ولا شك أن مثل هذه الحياة المليئة بالدهشة والتناقض، تستحق أن يقدمها أكثر من مخرج في أعمال متباينة، فقد قدمها المخرج الإيطالي فرانكوب روجي أحد الأخوين تانياني في فيلم "مودي" عام ١٩٩٠، وجسد الدور الممثل ريتشارد بيري، وجسدت السيدة مللي دورجان.

أما الفيلم الثالث فهو أمريكي باسم "موديلياني" عام ٢٠٠٤، وهو عن الحياة كلها التي عاشها الفنان، وجسد الدور الممثل آندي جارسيا، وجسدت السازلبر شتاين دور جان كما أن شخصية موديلياني ظهرت بشكل هامشي في الفيلم الفرنسي "الوشم" عام ١٩٦٨ من إخراج دنيس ودلاباتيلير، حيث رسم الفنان وشمًا على ظهر شخص يدعى لوجران، وبدا الوشم أقرب في ملامحه إلى وجه الكاتب والرسام الشهير جان كوكتو.

أغرب ما في الفيلم، أنه صدر في طبعتين، الأولى أطول من الثانية بقرابة ساعة، وفيه تفاصيل كثيرة، عن الصداقة التي نمت بين الشاعر البولندي والرسام الإيطالي، أما النسخة الثانية من الفيلم، فقد ركزت على العلاقة التي ربطت بين موديلياني وجان، وقد ازدحم الفيلم بالشخصيات التي عاشت في محيط مودي في الفترة الأخيرة من حياته، مثل الموديل "بياتريس هاستتنج" جسدتها الممثلة الألمانية "ليلي بالمر" التي رسمها بوجه مدام بومبادور.

وكما شرحنا، فإن المعلومات حول الفيلم تكاد تكون معدومة عن هذا الفيلم، في اللغات الأساسية الثلاثة التي انتمى إليها موديلياني، وهي الإيطالية، ثم الفرنسية، وبالطبع الإنجليزية اللغة الأكثر إثراءً في موسوعة الويكيبيديا.

لا نعرف من الذي أكسب الآخر الحيوية والتواجد في الفيلم، هل الحياة المليئة بالمرض والفقر والخجل والإبداع التي عاشها موديلياني، هي التي جعلت جيرار فيليب في واحد من أحسن حالاته، أم أن فيليب الذي تبنى دومًا تجسيد الشخصيات المهمة في الثقافة والحياة، هو الذي كسا مودي المزيد من الأهمية، فلاشك أن هناك تقاربًا ملحوظًا بين الرسام والممثل، في أن كلا منهما عاش حياة قصيرة، لم تبلغ الأربعين، وإن جيرار فيليب "١٩٢٢ – ١٩٥٩" كان يشعر مثل مودي أن حياته قصيرة.

تقدم كل هذه الأدوار المتألقة، فوق خشبة المسرح، وأيضًا في السينما الفرنسية فهو الذي جسد شخصية كاليجولا "ألبير كامي" والسيد "كورني" وريتشارد الثاني "شكسبير"، و"أميرهامبروج" فون كلايست، وراي بلاس "هيجو" على المسرح، أنه قام ببطولة أفلام عديدة، مأخوذة من نصوص أدبية مهمة مثل الأبله "دوستويفسكي" و"بربارم" و"الأحمر والأسود" ستاندال، وجمال الشيطان "جوته" و"المقامر" دوستويفسكي، والعلاقات الخطرة "بيير دولا كلوس" وهو الممثل الذي حظي بأكبر عدد من التكريمات والجوائز في القرن العشرين داخل فرنسا.

وقد اقترن اسم فيليب بموديلياني من خلال هذا الفيلم، بينما لم يحدث هذا لاسم الممثل الأمريكي آندي جارسيا الذي جسد الدور في فيلم "موديلياني" من إخراج مايك دافيز عام ٢٠٠٤، وهو فيلم بمثابة سيرة حياة للفنان، مع التركيز على العلاقة القدرية، المليئة بالممنوعات التي عاشها مودي مع جان هيبوترن، وإذا كان الفيلم الفرنسي يدور في الأعوام الثلاثة الأخيرة من حياة موديلياني، فإن الفيلم الأمريكي يبدأ قبل وفاة الرسام بعشر سنوات حين وصل الكثير من الفنانين التشكيليين، من بلادهم للإقامة في باريس، ومنهم وريس أوتريللو، وشايم سوتين اللذين صارا صديقين لموديلياني.

وقد ركز الفيلم الأمريكي على الصراع بين أسرة جان، وبين الفنان، فالأسرة لن تتقبل أبدًا أن تنجب ابنتها من رجل له جذور يهودية، ويركز الفيلم حول التحدي الذي مارسه موديلياني من أجل أن يرسم كثيرًا كي يأتي بالنجاح إلى ابنته وأمها.

كما أن الفيلم اهتم بإظهار أكبر عدد من الفنانين التشكيليين الذين ينتمون إلى تلك الحقبة ابتداءً من بيكاسو إلى دييجو ريفيرا، وماكس جاكوب، وفريدة كالو، بالإضافة إلى أدباء مثل جان كوكتو، وجرتدوشتاين، وعلى المستوى الخاص فإن موديلياني سعى دومًا إلى الحصول على تصريح للزواج من جان، وعقب حصوله على الرخصة المنشودة، كان المرض قد اشتد به، وهي تفاصيل لم نرها في الفيلم الفرنسي، كما أن الفيلم وقع في أخطاء عديدة، حيث أن فريدة كالو لم

تظهر في حياة موديلياني، كما أن الفيلم استعان بأغنيات لاديت بياف، التي كانت في الخامسة من العمر حين رحل موديلياني عن الحياة، كما أن الفيلم زعم أن هناك لوحة لبيكاسو تحمل عنوان "بورتريه موديلياني"، وليست هناك لوحات بهذا العنوان.

وأكد الفيلم الأمريكي أن الكحول والمخدرات قد عجلا بوفاة موديلياني، إذن لقد وجد كاتب السيناريو الأمريكي في حياة موديلياني في المزيد من الأهمية، فرأينا الفنان في طفولته، يرتع في الفقر والحرمان.

من الغريب أن حالة القدرية التي أصابت العاملين في الفيلم، فإن المخرج جاك بيكر قد رحل قبل أن يكمل فيلمه الأخير "الذئب" عام ١٩٦٠، واعتبر أن "مونبارناس ١٩" هو فيلمه الأخير، وهكذا فإن الفيلم الذي تكلم عن لعنة أصابت الفنان التشكيلي موديلياني، خاصة في آخر حياته كان أقرب إلى الفيلم الأخير في حياة جيرار فيليب "٣٧ عاما" وجاك بيكر "٥٢ سنة."

بيكاسو..
ساحر النساء واللوحات

في النص المكتوب عن الأفلام التي صورت حياة "بيكاسو" أو تكلمت عن أهميته روَّعني أن الويكيبيديا لم تذكر كل الأفلام التي نعرفها، والتي تحدثت سينمائيًا عن "بيكاسو" ولكن هناك اهتمام ملحوظ في الويكيبيديا الإنجليزية بالفيلم الأمريكي "إحياء بيكاسو" الذي أخرجه "جيمس أيفوري" وقام ببطولته "أنتوني هوبكنز" عام ١٩٩٦ أما الفرنسيون فقد أضافوا الأفلام التسجيلية الطويلة عن الفنان، والتي سوف نتعرض لها،

أما أهم هذه الأفلام فهو فيلم "صيف بيكاسو" إخراج "إليس سميث" فلم يأت ذكره بالمرة في وسائل المعلومات الإلكترونية وهو فيلم تم عرضه عام ١٩٦٩ وفيه لم يظهر الفنان التكعيبي بالمرة لكنه حاضر مع المشاهد دومًا، ونراه في المشهد الأخير وهو يرسم اسكتشًا سريعًا فوق رمال أحد الشواطئ.. إنه "بيكاسو" بكل ما به من موهبة وسحر وجاذبية يصبح هدفا لاثنين من معجبيه الرجل اسمه "جورج سميث" يعيش مع زوجته "أليس" في سان فرنسيسكو، وبعد أن ينتهي من أحد مشاريعه الهندسية، فإنها تحاول أن تصحبه إلى إحدى الاحتفاليات الفنية في أوروبا، والفيلم بمثابة رحلة فنية ممتعة يتعرف فيها المهندس المعماري على فن "بيكاسو"

ويقرأ عنه ويحس أنه موجود من حوله في كل مكان يتحدث الناس عنه، ويقرر أن يسافر إلى شاطئ البحر حيث يعيش الفنان وتتم الرحلة فوق دراجتين ويكتشفان من خلالها أن المراحل الفنية التي مر بها "بيكاسو" من الانطباعية الأولى إلى المرحلة الزرقاء ثم التكعيبية لم تكن سوى رؤية ذاتية خاصة للفنان الذي عشق الطبيعة، وعاش فيها ويصل الزوجان في النهاية إلى شاطئ البحر ونرى "بيكاسو" يمسك بعصا يوقع بها اسمه على لوحة سريعة رسمها على الرمال.

لم أستطع أن أنسى هذا الفيلم، ليس فقط لأنه عن "بيكاسو" وهو يرسم فوق الموج أيضًا، وهو أحد الأعمال المبكرة التي أقنعتني بالرجل ورسومه ومدرسته، وكنت قبل ذلك من المعجبين بقدرة الفنانين الكلاسيكيين، بل أيضًا لأن الممثلة الأمريكية "إيفييت ميمو" صاحبة الوجه البرئ أدت دور الزوجة أمام "ألبرت فيني" وقد قام فيني ببطولة فيلم ناجح قبل ثلاثة أعوام من هذا التاريخ باسم "اثنان على الطريق" أمام "أودري هيبورن."

نعم.. هذا النوع من الأفلام السينمائية يفتح الشهية لعشق الفن التشكيلي، خاصة أننا أمام شخصية لا يمكن أن ننفصل عن فنها؛ فحياة "بيكاسو" "١٨٨١ – ١٩٣٧" هي لوحاته، وأيضًا مراحله الفنية، والنساء اللاتي دخلن حياته إما كزوجات أو عشيقات، وأيضًا علاقاته الفنية بأبناء جيله والأجيال السابقة عنه واللاحقة له، ورحيله عبر إسبانيا وفرنسا، ومواقفه السياسية وانبهار السينمائيين بلوحاته وعمل أفلام

تسجيلية عن هذه اللوحات مثل "جرنيكا" ثم عمل أفلام تسجيلية عن حياته مثلما فعل المخرج الفرنسي "هنري جورج" عام ١٩٥٦ بفيلمه "غموض بيكاسو" كما أن قصصه مع زوجاته كانت نماذج لقصص حب تصلح أن تقدمها السينما وخاصة "فرانسواز جيلو" آخر زوجاته التي أنجبت له ابنته "بالوما" التي صارت عارضة أزياء، كما أنها أيضًا ظهرت في بعض الأفلام الســـينمائية ومنها أفلام تضمنت مشاهد جريئة.

الأفلام السينمائية المدوَّنة في الموسوعات الإلكترونية هي "فان رانوار مبكر بيكاسو" عام ١٩٤٨ و "زيارة إلى بيكاسو" عام ١٩٤٩ و"جرنيكا" عام ١٩٥٠ ثم "بيكاسو" عام ١٩٥٥ و"غموض بيكاسو" عام ١٩٥٦ و"إحياء بيكاسو" ١٩٩٦ و"بيكاسو الساحر" و"الجنس والموت" ٢٠٠١ مما يعني أن هناك فترة بعينها تم فيها الاهتمام بالرجل وفنه سينمائيًا، ثم تم نسيانه تمامًا لسنوات طويلة حتى أعاده "جيمس إيفوري" إلى الحياة بوجه "أنتوني هوبكنز" وهو الممثل الذي جسد شخصيات شهيرة عديدة منها " نيكسون" و"هيتشكوك."

تجئ أهمية فيلم "غموض بيكاسو" أن مخرجه قد صوَّر فيه الفنان التشكيلي وهو في حالة عمل كانت تلك واحدة من المراحل المتتابعة التي شهدها بيكاسو ففي تلك الفترة كان يرسم على الزجاج والفيلم تسجيلي يجمع بين الأبيض والأسود والألوان، والمعروف أن "كلوزو" هو مخرج روائي قدم أفلامًا بالغة الأهمية وهو الشاهد الوحيد علي تلك المرحلة الفنية من حياة بيكاسو ويقال إنها كانت قصيرة وهنا جاءت أهمية

الفيلم التسجيلي، حيث ظهر "بيكاسو" وهو يرسم ورأيناه في حالة "فعل فني"، وقد عُرض الفيلم في مهرجان "كان" عام ١٩٥٦ وحصل على العديد من الجوائز، منها جائزة خاصة من لجنة التحكيم، والسعفة الذهبية وجائزة أحسن إخراج، كما أن الفيلم نفسه عرض في مهرجان "كان" أيضًا خارج المسابقة في عام ١٩٨٢.

العلاقة كانت عتيقة بين المخرج والفنان، حيث التقيا عام ١٩٢٠ لكن فكرة الفيلم أتت بعد ثلاثة عقود من صداقة وطيدة، ولم يكن هذا هو الفيلم الأول للمخرج في عالم الفن التشكيلي حيث قدم فيلمًا آخر حول "جورج براك" ، وقد استأجر "كلوزو" و"بيكاسو" استديو خاصًا للتصوير الذي تم في شهور الصيف عام ١٩٥٥.

أما الفيلم الذي أخرجه "جيمس إيفوري" فهو عن الفترة التي تزوج فيها زوجته الثالثة "فرانسواز جيلو" التي أنجبت له كلًا من "كلود" و"بالوما" حيث التقيا عام ١٩٤٤، بعد تحرير باريس من الاحتلال الألماني، كان هو آنذاك في الثالثة والستين من العمر، أما هي فكانت تصغره بأربعين عامًا ومن الواضح أن الفيلم بمثابة اقتباس لكتاب "حياتي مع بيكاسو" الذي كتبته "فرانسواز" حيث إنها الوحيدة التي تعرف كل هذه الجوانب من الحياة الخاصة للفنان وقد بينت في كتابها كم كان للفنان خليلات عديدات، وكان ذلك سببًا مؤكدًا لأن ينفصلا، وبدت كأنها أرادت أن تنتقم منه فنشرت هذا الكتاب عام ١٩٦٤، حيث أشارت أنه كان يتخذ من النساء عشيقات لفترة طويلة، مثل "جنيفيف

لابورت" التي عاشت معه أربع سنوات في بداية الخمسينيات من القرن الماضي، ولا شك أن فيلم "جيمس إيفوري" قد استهواه حياة "بيكاسو" الخاصة، والغريب أن عناوين الفيلم تشير أنه مأخوذ من كتاب باللغة الإنجليزية ألفته "آريا ناستاسنبولس هفنجتون" باسم "سيرة ذاتية.. بيكاسو خالقًا ومدمرًا"، وكأن ما جاء في هذه السيرة الذاتية أكثر أهمية مما كتبته زوجة عن رجل ارتبطت به طويلًا وأنجبت له.

الفيلم تبدأ أحداثه أثناء الاحتلال النازي لباريس، في هذه الفترة تلتقي"فرانسوازناتاشا ماكلهون"، "بيكاسو أنتوني هوبكنز" في باريس التقى الاثنان عقب قيام بعض اللصوص بسرقة وتدمير بيت "بيكاسو" تحدثه الفتاة الصغيرة إنها تود أن تكون فنانة تشكيلية، أما أبوها فإنه يود أن تعمل محامية والفيلم يدورعلى لسان "فرانسواز" كي تؤكد أنه مأخوذ عن كتابها وأن في الأمر خدعة والفيلم يتكلم "بيكاسو" الرجل الإنسان الزوج، أكثر مما يتكلم عن الرسام، لكن هناك تركيز على بعض الأعمال التي رسمها "بيكاسو" في تلك المرحلة مثل "جرنيكا"، ويمتلئ الفيلم بقصص عشق نساء دخلن حياة "بيكاسو" في تلك المرحلة، ورغمًا عن أنف الزوجة مثل أولجا خوخولوفا "جان لابوتير"، ودورامار "جوليان مور" وماري تريز والتر"سوزانا هاركر"، وجاكلين رك "ديانا فيرونا "

لقد أرادت الزوجة أن تقول عن وراء كل هذه اللوحات رجلًا عجوزًا يستمد حيويته من علاقاته النسائية، وكلما زاد عدد النساء من حوله تنوع أكثر وازداد إبداعًا.. في الكتاب أرادت أن تنتقم منه وأن

تفضحه وفي الفيلم فإن "بابلوليس" أكثر من عجوزعاش طويلًا كان عاشقًا بشكل ملحوظ للنساء.

وفي هذا الفيلم لم نر من الفنانين الذين كانوا في محيط "بيكاسو" سوى "هنري ماتيس" بينما اختفت ابنتاه تمامًا، وكانتا صغيرتين خاصة "بالوما."

لا يزال "بيكاسو" ونساؤه ربما أكثر من لوحاته مصدر إلهام، ملحوظ للقصص السينمائية بين وقت وآخر ففي عام ٢٠١٠ قام المخرج "جان دانييل فرهاغ" بإخراج فيلم للتليفزيون الفرنسي تحت عنوان "ذات القبعة الحمراء تبكي" والفيلم عن إحدى النساء اللاتي دخلن حياة بيكاسو دون أن تتزوج منه وهي "دورامارا" وهي مصورة فوتوغرافية موهوبة، ومشهورة وبالغة الجمال، والذكاء التقت "بالبلو" في سنوات الثلاثينيات قبل أن يتزوج من "فرانسواز" وما لبثت أن وقعت في هواه كان "بيكاسو" في تلك الآونة متزوجًا من امرأة أخرى وله أيضًا عشيقته تدعى "ماري تيريز" أنجبت منه طفلته "مايا" وقد ارتبطت

"دورا" بالفنان دون أن تطلب منه أن يتخلى عن امرأته أو عشيقته، وأمام هذا الأمر فقد طالت علاقتهما معًا واستمرت حتى بعد زواجه من "فرانسواز جيلو" بدليل إنها كتبت عنها في مذكراتها كما إنها كانت إحدى الشخصيات البارزة في الفيلم الذي أخرجه "جيمسإيفوري" وقد اهتم هذا الفيلم أيضًا بالحياة الخاصة لـــ"بيكاسو" فرأينا نساء

أخريات في حياته بينما لم تأت سيرة أحد من مشاهير تلك المرحلة سوى الشاعر "بول إلوار"


جرنيكا

الحدث والفيلم واللوحة

ساهم الفنانون التشكيليون في القرن العشرين في تشكيل وجدان الناس في كافة أنحاء الدنيا، ولعل الناس لا يمكنها أن تتذكر مأساة قرية جرنيكا الإسبانية التي أغارت عليها طائرات النازية الألمانية والفاشية الإيطالية إلا من خلال التوقف عند اللوحة الضخمة التي رسمها الفنان الإسباني بابلو بيكاسو حول هذه المأساة التي خلفت ألفي قتيل من الأبرياء،

هذا الحدث الذي تمثل في اللوحة المشهورة، والتي صارت موضوعًا لفيلم تسجيلي فرنسي تمت فيه الاستعانة بقصيدة مليئة بالحيوية للشاعر بول إيلوار والفيلم من إخراج آلان رينيه وروبير هسن، يعتبره النقاد في الفن التشكيلي والسينما أحد أشهر نماذج الفيلم الفني على الإطلاق.

لقد نجحت اللوحة، وأيضًا الفيلم في تثبيت لحظات الدمار والعنف والقسوة التي حدثت في قرية جرنيكا وتفاصيل تلك اللوحة تعيد إحياء هذا الحدث البشع الذي تكرر دومًا طوال القرن العشرين وحتى الآن: دمار وانفجارات ودماء كثيفة، موت ودموع ولو أن بيكاسو كان قد كرر الأمر بلوحة أخرى عما أصاب هيروشيما لأحيا هذا الحدث في التاريخ بدرجة تفوق ما رأيناه في "جرنيكا" مئات المرات فقد أثبتت التجربة أن اللوحة أقوى من الفيلم والدليل أن آلان رينيه نفسه أخرج

فيلمًا روائيًا فيما بعد حول "هيروشيما حبي" لكن جرنيكا كانت أكثر بقاءً رغم أن هيروشيما أكثر قسوة وبشاعة وألمًا وكارثية.

إنه الفيلم الفني أو الفيلم التشكيلي وإن كان المصطلح الشائع هو "أفلام الفن" التي تتناول علاقة السينما بالفن التشكيلي وفي هذا المجال هناك ثلاثة أنواع من هذه الأفلام كما يأتي في المراجع على لسان الناقد الفرنسي بول وارن.. ودور هذه الأفلام:

أولاً: توثيق مرحلة تاريخية بمساعدة التصوير الزيتي مثلما رأينا في الفيلم الروائي "جويا" إخراج لوتشيانو أيمر الذي يصف الحياة الاجتماعية والفنية في القرن الثامن عشر في إسبانيا من خلال لوحات الفنان جويا، وقد توقفنا عند هذا الفيلم في دراستنا عن علاقة السينما بفن جويا.

ثانياً: يقوم أصحاب هذا النوع بإطلاق العنان لنزعات الفنان في الإبداع فيقومون بتفسير العمل وشرحه ويقسمون اللوحة إلى تفصيلات صغيرة ويتوقفون عند هذه التفصيلات لإعطاء المزيد من الاهتمام للتفصيلات مثلما رأينا في فيلم حول "روبنز" من إخراج ستروك هيرت، وكما رأينا في الفيلم الروائي "باري ليندزن" إخراج ستانلي كيربريك، الذي جسد لوحات روبنز في مشاهد حية فجعل المشاهد يعيش هذا العصر دون أن يحكي الفيلم عن أي علاقة لموضوع الفيلم بالفنان نفسه.

ثالثاً: الأفلام الفنية لا ترتبط بأي غرض خارجي سوى أن يبني من عناصر الفن عالمًا مستقلًا بذاته كي يصل تأثيره الفني إلى مستوي تأثير

اللوحة الأصيلة وربما يتجاوزه مثلما سنرى في فيلم "جرنيكا" حيث أن السينما ستحدث تأثيرها من خلال المونتاج والمؤثرات الصوتية والتصوير، وهذا النوع يستخدم اللغة السينمائية لنقل العمل التشكيلي من عالم الفن إلى عالم السينما حيث يحدث تأثير متبادل بين الطرفين مما يؤكد على قوة الارتباط بين السينما والفن التشكيلي.

الحدث

في السابع والعشرين من إبريل عام ١٩٣٧وإبان الحرب الأهلية المندلعة في إسبانيا بين الطاغية الجنرال فرانكو وبين معارضيه فيما عرف باسم الحرب الأهلية الإسبانية قامت الطائرات الألمانية النازية بمساعدة طائرات ايطإلية تتبع الدوتشي موسوليني بالإغارة على قرية إسبانية آمنة معروفة باسم "جرنيكا".. الهدف هو إثبات أن الطغاة يساندون بعضهم البعض وحسم الحرب الأهلية لصالح الديكتاتور فرانكو هذه القرية تقع في إقليم الباسك، هذه الطائرات التي بلا قلب أتت في لحظات قليلة على ألفين من سكان القرية، قوم أبرياء لم يكونوا يعرفون قبل دقائق أن هذا الأزيز المصاحب لانطلاق الطائرات يحمل معه الموت والدماء وسط جبال خضراء وبين وطن مزقه الديكتاتور بحرب أهلية حصدت المزيد من القتلى.

هذه الحرب التي بدأت عام ١٩٣٦ وانتهت بانتصار الديكتاتور وجثم فوق صدر شعبه لأكثر من أربعين عامًا.. لقد أسقطت هذه

الطائرات عشرة ألاف من القنابل المتفجرة تابعة لجيش هتلر القوي الذي كان يتأهب لغزو بعض البلدان الأوروبية المجاورة ومنها بولندا وفرنسا فيما أسفر بعد ذلك عن الحرب العالمية الثانية، إذن فالفوهرر يبدو كأنه يرسل إلى أوروبا رسالة إنذار تعبر عن بشاعة ما ينتظر القارة من مظاهر دمار وإمكان الاستخدام البشع للأسلحة الكيماوية وذلك من خلال مساندة قوات فرانكو.

هذا هو الحدث الذي لابد أن يفزع العالم بأكمله بعد أن قامت وكالات الأنباء ببث الصور والتفاصيل.. إذن لابد أن يفجع العالم ويصيبه ذهول يسكت الأفواه ويجعل العيون في حالة تكذيب لما تراه ولا شك أن الكُتاب سوف يكتبون مثلما فعل الروائي الأمريكي إرنست هيمنجواي في روايته "لمن تدق الأجراس" وسوف يترك أثره الشديد في فنان مرهف الحس من طراز بابلو بيكاسو الإسباني الذي كان يعيش سنوات ازدهاره في فرنسا.

اللوحة

في يناير عام ١٩٣٧ قامت الحكومة الإسبانية بقيادة فرانكو ممثلة في خوسي رينو المدير العام لمصلحة الفنون بإرسال رسالة إلى الفنان بابلو بيكاسو تطلب منه أن يرسم لوحة تعرض في المعرض الدولي بباريس الذي سيقام بعد ستة أشهر من بداية العام، لم يكن بيكاسو متحمسًا للتعاون مع الحكومة الإسبانية وسط الحرب الأهلية، ولم يرسم خطًا واحدًا حتى نهاية

أبريل، إلى أن حدثت المأساة في قرية جرنيكا، وهنا قرر أن يرسم لوحته، وبدأ عمله في الأول من مايو في العام نفسه، وظل في حالة رسم حتى الرابع من يونيه، الفنان منهمك بشدة يكاد يكون يكون بعيدًا عن العالم، ولم يسمح لأحد أن يحضر عملية الإبداع عدا عيني عشيقته "دورا مارا" التي صارت زوجته فيما بعد، تتابعه بالكاميرا وتصور قسماته وهو مستغرق في الرسم.. الذي لا نعرفه هو لماذا لم يستعن الآن رينيه بالصور الملتقطة في فيلمه بينما اهتم فقط باللوحة وبقية لوحاته.

اللوحة أبيض وأسود مع لون أزرق واحد بدون درجاته، والقطع بالتقريب ٣٤٩ في ٧٧٦ سنتيمترا، على قماش مرسوم بالزيت على طريقة بيكاسو حيث تتداخل الأجسام في بعضها بمناظير متباينة وخطوط خارجة حادة في وسط اللوحة يبدو حصان أبيض يملأ مركز اللوحة أصابه الخوف والرعب وقد تطاوحت رقبته وبدا الرعب على ملامحه وحركة جسده بما يعني أن الضحايا لم يكونوا فقط من البشر من أهل قرية جرنيكا بل أيضًا من الحيوانات الأليفة النبيلة التي تشارك الإنسان حياته المسالمة، وعلى إليسار امرأة ثكلت ابنها الصغير في الغارة فحملته بين يديها وراحت تصرخ ومن خلفها ثور من عشرات الثيران التي نفقت وهناك رجل ممدد فوق الأرض وقد حمل سيفًا مكسورًا، وهناك وردة مقتطفة لتوها قريبة من الفرس ويمد شخص مصباح غاز دليل التنوير في منتصف اللوح، إن بيكاسو يجمع كل ما يمثل القرية التي جاءها الدمار مثلما سنرى لوحة " القرية" في عين واسعة لبقرة في لوحة شاجال المشهورة.

اللوحة مليئة بالحركة والحياة تعبر عما حدث في قرية جرنيكا.
هذه اللوحة شاهدها الناس للمرة الأولى في معرض باريس في الرابع من يونيه في العام نفسه أي بعد أن انتهى بيكاسو من رسمها بيومين فقط، كما أشرنا فإن لونًا واحدًا من الأزرق في لوحة "جرنيكا". هذه اللوحة تم الاحتفاظ بها في الولايات المتحدة الأمريكية بناءً على رغبة صاحبها وظلت هناك إلى أن رحل الجنرال فرانكو في نهاية السبعينيات من القرن الماضي وصارت إسبانيا مملكة، وكان بيكاسو قد غادر عالمنا، فتم نقل اللوحة إلى متحف الملكة صوفيا بمدريد في عام ١٩٨١.

الفيلم

قبل أن تحب هذا الفيلم يجب أن تكون محبًا للفن التشكيلي.. هذا هو حال المخرجين الذين يعملون في هذا النوع من الأفلام، وبشكل خاص آلان رينيه، فهو الفنان المثقف الذي سبق أن أخرج أفلاما وثائقية "أبيض وأسود" حول أبرز الفنانين التشكليين الأجانب الذين عاشوا في باريس مثل جوجان وفان جوخ ثم بيكاسو وهو المخرج الذي تكلمت الصور الجمالية التشكيلية في أفلامه الروائية اللاحقة ومنها "العام الماضي في مارينباد" ١٩٦١ وفي ١٩٤٩ كتب السيناريو لفليم جرنيكا وطلب من الشاعر المعروف بول إيلوار كتابة قصيدته "جرنيكا".

وبيانات الفيلم حسب طاقم العاملين به كالتالي:

إخراج: "آلان إيلوار– روبير هسن".

النص: "بول إيلوار" عن لوحة بيكاسو.

تصوير: "هنري فران" أبيض وأسود (ساعة و١٣ دقيقة).

مهندس الصوت: "بيير – لوي كافالييه".

إنتاج: "بيير برونبرجيه".

مونتاج: "آلان رينيه".

موسيقى: "جي برنار".

قائد الأوركسترا: "مارك فوبوجوان".

مدير إنتاج: "كلود هوسيه".

أداء صوتي: "ماريا كازاراس – جاك برنو".

الفيلم يحاول الاستفادة من لوحات بيكاسو التي رسم فيها الإنسان والطبيعة طوال المراحل التي مر بها فنيًا منذ عام ١٩٠٦ وحتى ١٩٣٧ فمثل هؤلاء البشر الذين عرفناهم من لوحات بيكاسو من المهرجين والقرويين يتم استعادتهم في اللوحة كما وصفناهم على صدى أشعار إيلوار الذي قال في البداية على خلفية القرية والصحف ووجوه الناس.

أزمة إنسان العصر

في الحزن والشجاعة

من الحياة ومن الموت

الموت ذلك الأمر العسير

ذلك الأمر اليسير

القسوة والأطفال يحتفظون بنفس الكنز

يحتفظ به في المآقي وفي العيون

والرجال يذودون عنه

وعلى خلفية هذه الأبيات في القسم الأول من الفيلم نرى ما حول بيكاسو وجرنيكا أكثر مما نرى تفاصيل اللوحة نفسها مقصوصات من أشخاص رسمهم بيكاسو من قبل، هناك أرواح عديدة تلفظ أنفاسها الأخيرة وقد تملكها ألم شديد لا يحتمله البشر، إنه الموت المأساوي الذي سوف يواري الأجساد التراب معبرًا عن الخزي الذي أصاب الإنسانية من جرَّاء هذا الخراب الكبير الذي عبَّر عنه الشعراء في قصائدهم ابتداء من ت. س إليوت حتى إيلوار الذي يقول في مقطع من القصيدة.

رصاص المدافع الرشاشة

يقضي على القتلى

رصاص المدافع الرشاشة

يداعب الأطفال

أسرع مما تداعبهم الريح

بالحديد والنار

حفروا الإنسان كما لو كان منجمًا

حفروه كما لو كان ميناءً بغير مركب

حفروه كما لو كان موقدًا بغير نار

لقد اجتمع عالم بيكاسو مع قصص الواقع، مع الصورة السينمائية والمؤثرات الصوتية والبصرية والشعر في كيان واحد على يدي مخرج من طراز رينيه وزميله الذي لم يحظ قط بشهرة زميله؛ ففي اللوحة هناك أم تحمل طفلها الذي كان مليئا بالحيوية والحياة قبل قليل وقد انتابها ألم لا تحسه سوى أم فقدت ابنها بمثل هذه الطريقة البشعة، وذلك في لوحة جمالية مليئة بمجردات محسوسة، حيث تمتزج كلمات مصورة حول النصر والفاشية وجرنيكا.. وفي المشهد الأخير تقترب الكاميرا من رجل يحمل حيوانًا ويملأ وجهه الشاشة على كلمات إيلوار:

عاد رجل كان يحمل بين ذراعيه

حملًا يئن وفي قلبه حمامة

يغني من أجل البشر الآخرين

أغنية الثورة المجيدة

التي تقول للحب مرحى

وتقول للظلم لا

تقول إن جرنيكا مثل هيروشيما

هي عاصمة السلام الحي

جرنيكا

إن البراءة يا جرنيكا

ستستخلص حقها من براثن الجريمة

حين تكون العلاقات النسائية أهم من اللوحات

لا يمكن لكاتب مقال أن ينكر أنه حين يكتب في هذه الآونة، أنه لم يرجع إلى شبكة المعلومات، خاصة موسوعة الويكيبيديا، ولا أنكر أنني أرجع إلى ما بهذه الموسوعة في بعض ما أكتب، وأنا الذي كنت أفخر دومًا أنني أمتلك ملفات ورقية عن شخصيات في الثقافة العربية والعالمية، قبل أن تهل علينا الويكيبيديا،

وأن ما في هذه الملفات يتفوق على ما نقرأه في الموسوعات الإلكترونية، لكن مع مرور الوقت، تعاظمت المعلومات في الوسائل الإلكترونية، وصار اعتمادنا على الورق يقل بشكل ملحوظ إلى أن عادت ثقتي بملفاتي هذا الأسبوع، وأنا أتعامل مع الأفلام التي صورت حياة وأعمال الفنان التشكيلي الإسباني بابلو بيكاسو.

ففي النص المكتوب عن الأفلام التي صورت حياة بيكاسو، أو تكلمت عن أهميته، روعي أن الويكيبيديا لم تذكر كل الأفلام التي نعرفها والتي تحدثت سينمائيًا حول بيكاسو، وكان هناك اهتمام ملحوظ في الويكيبيديا الإنجليزية بالفيلم الأمريكي "إحياء بيكاسو" الذي أخرجه جيمس إيفوري وقام ببطولته أنتوني هوبكنز عام ١٩٩٦، أما الفرنسيون فقد أضافوا الأفلام التسجيلية الطويلة، حول الفنان والتي سوف نتعرض لها، أما أهم هذه الأفلام، وهو "صيف بيكاسو" إخراج أليس سميث، فلم يأت ذكره بالمرة في وسائل المعلومات الإلكترونية، وهو فيلم تم عرضه

عام ١٩٦٩ وفيه لم يظهر الفنان التكعيبي بالمرة، لكنه حاضر مع المشاهد دومًا، ونراه في المشهد الأخير، وهو يرسم اسكتش سريعًا فوق رمال أحد الشواطىء، إنه بيكاسو بكل ما به من موهبة، وسحر، وجاذبية، يصبح هدفًا لاثنين من معجبيه، الرجل اسمه جورج سميث يعيش مع زوجته أليس في سان فرنسيسكو، وبعد أن ينتهي من أحد مشاريعه الهندسية، فإنها تحاول أن تصحبه إلى أحد الاحتفاليات الفنية في أوروبا، والفيلم بمثابة رحلة فنية ممتعة يتعرف فيها المهندس المعماري على فن بيكاسو، ويقرأ عنه، ويحس أنه موجود من حوله في كل مكان، يتحدث الناس عنه، ويقرر أن يسافر إلى شاطىء البحر حيث يعيش الفنان، وتتم الرحلة فوق دراجتين يكتشفان من خلالها أن المراحل الفنية التي مر بها بيكاسو من الانطباعية الأولى، إلى المرحلة الزرقاء ثم التكعيبية، لم تكن سوى رؤية ذاتية خاصة للفنان الذي عشق الطبيعة، وعاش فيها، ويصل الزوجان في النهاية إلى شاطىء البحر، ونرى بيكاسو يمسك بعصا، يوقع بها اسمه على لوحة سريعة رسمها على الرمال.

لم أستطع أن أنسى هذا الفيلم، ليس فقط لأنه عن بيكاسو، وهو يرسم فوق الموج أيضًا، وهو أحد الأعمال المبكرة التي أقنعتني بالرجل، ورسومه ومدرسته، وكنت قبل ذلك من المعجبين بقدرة الفنانين الكلاسيكيين، بل أيضًا لأن الممثلة الأمريكية إيفيبيت ميمو، صاحبة الوجه البرىء، أدت دور الزوجة أمام ألبرت فيني، فنحن أمام واحد من أفلام الطرق، وقد كان فيني قد قام ببطولة فيلم ناجح قبل ثلاثة أعوام من هذا التاريخ باسم "اثنان على الطريق" أمام أودري هيبورن.

نعم، هذا النوع من الأفلام السينمائية يفتح الشهية لعشق الفن التشكيلي، خاصة أننا أمام شخصية لا يمكن أن ننفصل عن فنها، فحياة بيكاسو (١٨٨١ – ١٩٧٣) هي لوحاته، وأيضًا مراحله الفنية، والنساء اللائي دخلن حياته، إما كزوجات أو عشيقات، وأيضًا علاقاته الفنية بأبناء جيله، والأجيال السابقة عنه، واللاحقة له، ورحيله عبر إسبانيا وفرنسا، ومواقفه السياسية، وانبهار السينمائيين بلوحاته، وعمل أفلام تسجيلية عن هذه اللوحات مثل جرنيكا، ثم عمل أفلام تسجيلية عن حياته مثلما فعل المخرج الفرنسي هنرى – جورج كلوزو عام ١٩٥٦ بفيلمه "غموض بيكاسو"، كما أن قصصه مع زوجته كانت نموذجًا لقصص حب تصلح السينما أن نقدمها وخاصة فرانسواز جيلو آخر زوجاته، التي أنجبت له ابنته بالوما التي صارت عارضة أزياء، كما إنها أيضًا ظهرت في بعض الأفلام السينمائية، ومنها أفلام تضمنت مشاهد جريئة.

الأفلام السينمائية المدونة في الموسوعات الإلكترونية هي "فان رنوار مبكر بيكاسو" عام ١٩٤٨، و"زيارة إلى بيكاسو" عام ١٩٤٩، و"جرنيكا" عام ١٩٥٠، ثم "بيكاسو" عام ١٩٥٥، و"غموض بيكاسو" عام ١٩٥٦، و"إحياء بيكاسو" ١٩٩٦، و"بيكاسو الساحر"،" الجنس والموت" ٢٠٠١، مما يعني أن هناك فترة بعينها تم الاهتمام بالرجل وفنه سينمائيًا، ثم تم نسيانه تمامًا لسنوات طويلة، حتى أعاده جيمس إيفوري إلى الحياة بوجه أنتوني هوبكنز، وهو الممثل الذي جسد شخصيات شهيرة منها نيكسون، وهيتشكوك.

تجيء أهمية فيلم "غموض بيكاسو" أن مخرجه قد صور فيه الفنان التشكيلي وهو في حالة عمل، كانت تلك واحدة من المراحل المتتابعة التي شهدها فن بيكاسو، ففي تلك الفترة كان يرسم على الزجاج، والفيلم تسجيلي يجمع بين الأبيض والأسود، والألوان.

والمعروف أن كلوزو هو مخرج روائي قدم أفلامًا بالغة الأهمية، مما يعني أنه قدم فيلمًا عن الفنان وفنه، كما تأتي أهمية الفيلم، هو الشاهد الوحيد على تلك المرحلة الفنية من حياة بيكاسو، ويقال إنها كانت قصيرة، وهنا جاءت أهمية الفيلم التسجيلي، حيث ظهر بيكاسو وهو يرسم ورأيناه في حالة "فعل فني"، وقد عرض الفيلم في مهرجان كان عام ١٩٥٦، وحصل على العديد من الجوائز، منها جائزة خاصة من لجنة التحكيم، والسعفة الذهبية، وجائزة أحسن إخراج، كما أن الفيلم نفسه عرض في مهرجان كان أيضًا خارج المسابقة في عام ١٩٨٢.

العلاقة كانت عتيقة بين المخرج والفنان، حيث التقيا عام ١٩٢٠، لكن فكرة الفيلم أتت بعد ثلاثة عقود من صداقة وطيدة، ولم يكن هذا هو الفيلم الأول للمخرج في عالم الفن التشكيلي، حيث قدم فيلمًا آخر حول جورج براك، وقد استأجر كلوزو وبيكاسو استوديو خاصًا للتصوير الذي تم في شهور الصيف عام ١٩٥٥

أما الفيلم الذي أخرجه جيمس إيفورى، فهو عن الفترة التي تزوَّج فيها زوجته الثالثة فرانسواز جيلو التي أنجبت له كلا من كلود، وبالوما، حيث التقيا عام ١٩٤٤، بعد تحرير باريس من الاحتلال الألماني،

كان هو آنذاك في الثالثة والستين من العمر، أما هي فكانت تصغره بأربعين عامًا، ومن الواضح أن الفيلم بمثابة اقتباس لكتاب "حياتي مع بيكاسو" الذي كتبته فرانسواز حيث إنها الوحيدة التي تعرف كل هذه الجوانب من الحياة الخاصة للفنان، وقد تحدثت في كتابها عن أن الفنان كانت له خليلات عديدات، وكان ذلك سبباً مؤكدًا لأن ينفصلا، وبدت كأنها أرادت أن تنتقم منه فنشرت هذا الكتاب عام ١٩٦٤، حيث أشارت أنه كان يتخذ من النساء عشيقات لفترة طويلة، مثل جنيفيف لابورت التي عاشت معه أربع سنوات في بداية الخمسينيات من القرن الماضي، ولا شك أن فيلم جيمس إيفوري قد استهواه حياة بيكاسو الخاصة، والغريب أن عناوين الفيلم تشير أنه مأخوذ من كتاب باللغة الإنجليزية ألفته آريا ناستاسنبولوس هفنجتون باسم "سيرة ذاتية: بيكاسو، خالقًا، ومدمرًا"، وكأن ما جاء في هذه السيرة الذاتية أكثر أهمية مما كتبته زوجة عن رجل ارتبطت به طويلًا، وأنجبت له.

الفيلم تبدأ أحداثه أثناء الاحتلال النازي لباريس، في هذه الفترة تلتقي فرانسواز "ناتاشا ماكلهون" بيكاسو "انتوني هوبكنز" في باريس التقى الاثنان عقب قيام بعض اللصوص بسرقة وتدمير بيت بيكاسو، تحدثه الفتاة الصغيرة أنها تود أن تكون فنانة تشكيلية.

أما أبوها فإنه يود أن تعمل محامية، والفيلم يدور على لسان فرانسواز، كي تؤكد أنه مأخوذ عن كتابها، وأن في الأمر خدعة، والفيلم يتكلم عن بيكاسو الرجل، الإنسان، الزوج، أكثر مما يتكلم عن الرسام.

لكن هناك تركيز على بعض الأعمال التي رسمها بيكاسو في تلك المرحلة مثل "جرنيكا"، ويمتلىء الفيلم بقصص عشق لنساء دخلن حياة بيكاسو في تلك المرحلة، رغمًا عن أنف الزوجة مثل أولجا خوخولوفا "جين لابوتير"، ودورامار "جوليان مور"، وماري – تريز والتر (سوزانا هاركر)، وجاكلين رك (ديانا فيرونا)، لقد أرادت الزوجة أن تقول إن وراء كل هذه اللوحات رجل عجوز يستمد حيويته من علاقاته النسائية، وكلما زاد عدد النساء من حوله تنوع أكثر، وازداد إبداعًا، في الكتاب أرادت أن تنتقم منه، وأن تفضحه، وفي الفيلم فإن بابلوليس أكثر من عجوز عاش طويلًا، كان عاشقًا بشكل ملحوظ للنساء.

وفي هذا الفيلم لم نر من الفنانين الذين كانوا في محيط بيكاسو سوى هنري ماتيس، بينما اختفت ابنتاه تمامًا، وكانتا صغيرتين، خاصة بالوما..

لا يزال بيكاسو ونساؤه، ربما أكثر من لوحاته، مصدر إلهام ملحوظ للقصص السينمائية بين وقت وآخر، ففي عام ٢٠١٠، قام المخرج جان – دانييل فرهاغ بإخراج فيلم للتليفزيون الفرنسي تحت عنوان "ذات القبعة الحمراء تبكي"، والفيلم عن إحدى النساء اللائي دخلن حياة بيكاسو دون أن تتزوج منه، وهي دورامار، وهي مصورة فوتوجرافية موهوبة، ومشهورة وبالغة الجمال، والذكاء، التقت بابلو في سنوات الثلاثينيات، قبل أن يتزوج من فرانسواز وما لبثت أن وقعت في هواه، كان بيكاسو في تلك الآونة متزوجًا من امرأة أخرى، وله أيضًا

عشيقة تدعى مارى تيريز، أنجب منها طفلته مايا، وقد ارتبطت دورًا بالفنان دون أن تطلب منه أن يتخلى عن امرأته، أو عشيقته، وأمام هذا الأمر، فقد طالت علاقتهما معًا، واستمرت حتى بعد زواجه من فرانسواز جولو، بدليل أنها كتبت عنها في مذكراتها، كما أنها كانت إحدى الشخصيات البارزة في الفيلم الذي أخرجه جيمس إيفوري، وقد اهتم الفيلم هذا أيضًا بالحياة الخاصة لبيكاسو، فرأينا نساءً أخريات في حياته، بينما لم يأت سيرة أحد من مشاهير تلك المرحلة سوى الشاعر بول إلوار.

سلفادور دالي..

سنوات الشباب القلقة

رغم أن سلفادور دالي هو واحد من أكثر الفنانين التشكيليين إثارة للجدل، ورغم شغفه بالسينما وارتباطه بصداقات عديدة مع أبرز صناعها، خاصة لوي بونويل، فإنه كان على الأقل حظًا في أن تتحول حياته كلها، أو جزء منها إلى أفلام روائية يشاهدها الناس، خاصة علاقته المدهشة بزوجته جالا.

وذلك قياسًا إلى ما قدمته السينما من قصص متعددة حول فنانين بأعينهم على رأسهم جويا، ورمبرانت، وفان جوخ، وبيكاسو، وآخرون، فالفيلم الوحيد الذي قدمته السينما حول دالي يحمل عنوان " قليل الرماد"، والغريب أنه إنتاج حديث عام ٢٠٠٨، ما يعني أن صنَّاع الأفلام تجاهلوا القصص الغرائبية المرتبطة بالفنان لعقود عديدة تلك التي يعرفها المتابعين للسيرة الحياتية لدالي.

تم إنتاج الفيلم بين كل من بريطانيا، وإسبانيا، بما يعني أننا أمام فيلم أوروبي، حيث أن السينما الأوروبية أبطأ في الإيقاع، وأكثر اهتمامًا في تتبع التفاصيل، ويعني أيضًا أن الأمريكيين لم تستهوهم حتى الآن سيرة حياة دالي، رغم أنهم حرصوا على اقتناء لوحاته في متاحفهم، وقد سبق أن أشرنا أن علاقة السينما بحكي قصص المشاهير خاصة الفنانين التشكيليين تنحصر في التوقف عند حدث ما مشهور في حياة الفنان، في فترة بعينها من زمن الفنان، مثل فيلم "العذاب والمتعة" لكارول ريد

١٩٦٥حول الفترة التي رسم فيها مايكل أنجلو سقف كنيسة سكستين، أو تتبع سيرة حياة الفنان منذ بدايته، مثلما حدث في فيلم "شهوة الحياة" لفنسنت بينللتي ١٩٥٧، أو عن علاقة عاطفية تربط الفنان بامرأة أسفرت عن رسم لوحة، مثلما حدث مع جويا في لوحتي "المايا العارية"، و"المايا المكسية".

ففي فيلم "قليل الرماد" لبول موريسون، نتوقف فقط عند مرحلة مبكرة جدًا من حياة سلفادور دالي في عام ١٩٢٢، أى وهو في الثامنة عشر من العمر، لم يكن الفنان قد تشكل تمامًا بعد، وإن كانت المدارس التشيكية الحديثة آنذاك قد تواجدت بقوة خاصة التكعيبية التي يمثلها بيكاسو ففي هذا العام كان دالي الذي جسده روبرت باترسون قد وصل إلى مدريد للالتحاق بالجامعة، وفي الفندق الجامعي حيث يلتقي الطلاب من مختلف المدن والمشارب يلتقي الشباب الإسباني، وقد ملأ الطموح كل منهم، أنه سوف يصبح بارزًا في المجال الذي اختاره لنفسه، وها هو سلفادور، وقد عقد العزم على أن يصير فنانًا مختلفًا، وفي البيت الجامعي يلتقي اثنين من الشباب الذين سوف يحقق كل منهما مكانته في مجاله، الشاعر فيديريكو جارسيا لوركا، والشاب لوي بونويل الذي سيكون مؤمنًا بأن السينما خُلقت كي تكون سريالية.

إنها الظروف التي دفعت الشباب الثلاثة كي يلتقوا، لكن المشكلة أن الطموح يتطلب الاحتكاك بالعالم من حولنا، والتواصل مع الآخرين، إلا أن الأصدقاء الثلاثة، خاصة الشاعر والسينمائي، يؤمنون

بأهمية الانقطاع عن العالم، والعيش في عزلة خاصة بعد أن تنضم إليهم كاتبة شابة تدعى ماجدلينا، التي تتوق إلى نقل نشاطها إلى مدينة باريس فترحل إلى هناك في صحبة لو بونويل، أما دالي ولوركا فإنهما يتركان مدريد لقضاء أجازة الصيف في قرية ساحلية تمتلكها أسرة دالي،إنها سنوات التكوين الأولى والنشأة.

أما لوركا، فقد وقع في غرام ماجدالينا، وتسير عجلة الحياة، دالي يرسم، ولوركا يؤلف الشعر والمسرحيات الشعرية، وبونويل يكتب القصص السينمائية ويقتنع دالي أن عليه أن يتبع بونويل المشغول بفيلمه الأول، وأن يلحق به في باريس تلك المدينة المتناقضة التي تجمع بين الرقي الشديد، والثقافة المنحطة وهناك يلتقي بامرأة جميلة غريبة الأطوار متزوجة من رجل ثري، لكنها تحب المشاهير، وتسعى إلى التقرب منهم، وتنمو قصة الحب التي عرفها العالم تجمع بين أكثر اثنين عرفا العشق المجنون.

وفي هذه السنوات، تكونت الأفكار الأولى لسلفادور دالي الذي رسم أحلامه في اللوحات، وعشق الطبيعة، وملأ لوحاته بالألوان الفاتحة المليئة بالبهجة، وقيل أن دالي قد رسم ما هو وراء الطبيعة، وأنه قد جسد أحلامه في لوحاته، عنوان الفيلم هو اسم لوحة رسمها دالي في عام ١٩٢٧، وكانت تُسمى في الأصل "ولادة فينوس."

قبل أن يرسو الأمر على اسمها التي عرفت بيه فيما بعد، وقد عرض دالي لوحته لأول مرة في معرض مدريد في التاسع والعشرين من مارس عام ١٩٢٩.

أى في نفس الفترة التي عرض فيها لوى بونويل فيلمه الأول "الكلب الأندلسى" ،وهذه الأعمال معاًأكدت أن هناك حركة فنية جديدة سُميت بالسريالية، وقد لفت نجاح الفيلم خاصة في باريس إلى أهمية هذا الاتجاه الفني الجديد وإلى الموهبة التي يتمتع بها الثلاثة.

ولعل الفيلم قد توقف عند هذه المرحلة بالذات ليكشف الميول الأولى لكل من الموهوبين الثلاثة، فهناك إشارة إلى أن لوركا كان مثليًا، ما أزعج دالي كثيرًا فهو لا يحب مثل هذا النوع من التصرف لكنه كان يعرف إلى أي حد بلغت موهبة صديقه في تأليف الشعر والمسرحيات، وأحس دالي بالسعادة بأن صديقه عندما ذهب إلى المصيف فإنه وقع في غرام امرأة، وكان بالغ السعادة أن يرى امرأة في فراش صديقه الشاعر كما أن الفيلم قد توقف عند مقتل لوركا على أيدي بعض الشباب وأشار إلى أن مثلية الشاعر كانت سببًا لنهايته في منتصف عام ١٩٣٠.

من المعروف أن في هذه المرحلة التي اختارها الفيلم من حياة دالي (١٩٠٤ – ١٩٨٩) ورفاقه أنه قد التحق بأكاديمية الفنون الجميلة في سان فرناندو بمدريد، وخلال الأشهر الأولى من التحاقه بالأكاديمية كان دالي يتصرف كتلميذ نموذجي مبتعدًا عن المجتمع المحيط به من أقرانه من الطلاب، وكان يذهب إلى متحف البرادو كل يوم أحد، حيث يمضي

ساعات طويلة أمام لوحات المشاهير ومنهم جويا، وديبجو فيلا ثكيت، وسوربا ران فرانشيسكو، إلا أنه أعلن تمرده على هذا النوع من اللوحات حيث تأثر بشكل واضح ببيكاسو، وبدأ ينهج نهجه وتطلع إلى التطور الذي تشهده مدارس الفن التشكيلي بأوروبا خاصة فرنسا ومن المعروف أن مواقف دالي الفكرية قد حرمته من الدراسة الجامعية لمدة عام، حيث دافع بقوة عن أحد أساتذته اليساريين، وفيما بعد تم القبض عليه بتهمة التحريض السياسي لمدة شهر، وما لبث أن أطلق سراحه، وفي هذه المرحلة أنجز عملًا مسرحيات (كمناظر) لمسرحية شعرية كتبها لوركا، وترى المصادر أن خلافًا سياسيًا حادًا دب بين بونويل ودالي، وقد قرأ الفنان في هذه السنوات الأعمال الكاملة لفلاسفة منهم كانط، ونيتشه، وفولتير، وسبينورا، إلا أنه تأثر أكثر بديكارت، وقد بدأ شكله الخارجي يتغير في هذه المرحلة فبعد أن قرأ كتاب "هكذا تكلم زرادشت" لنيتشه، قرر إطالة شاربه ليكون على غرار شارب نيتشه وظل هذا الشارب الأطول علامة على الملمح الشكلي الأساسي للفنان.

كما أن دالي قد تشكل بشكل ملحوظ في هذه الفترة أيضًا بصداقته مع كل من لوي أراجون وأندريه بريتون أبرز شعراء السريالية، وهما اللذان ساعداه في الانتقال من التكعيبية إلى المرحلة السريالية التي صار أشهر وأبرز أصواتها.

أما جالا الروسية منذ التقاها في باريس عام ١٩٢٩، وكانت تكبره بعشر سنوات وقد أثرت على فنه وفكره بشكل واضح، حيث

كانت حريصة على أن تحول خيالاته المتطرفة في الحياة والفن لتصبح لوحات ذات معنى وجاذبية، وقد تركت أثرها في حياته لدرجة أنه كان ينسب بعض لوحاته إليهما معًا.

تتشابك العلاقة بين الفن التشكيلي والسينما من خلال صور عديدة متنوعة، فكِلا الاثنين تعتمدان على الصورة، وفي إمكان كاميرات السينما أن توفر لك تفاصيل بالغة الدقة في اللوحة أو النحت، ما يوسع دائرة التكامل فيما بينهما.

وقد تنوعت الأفلام السينمائية التي تتعامل مع الفن التشكيلي من الاعتماد على الحكي، وإعادة تشكيل حياة الفنان من خلال فيلم روائي وفي هذا الإطار كان هناك فنانون بأعينهم، ظهرت قصص حياته في أكثر من تجربة روائية وعلى رأسهم فان جوخ، وسلفادور دالي، وبيكاسو.. إذ أن حياة كل منهم ونتاجهم الفني قد أثار جدلًا في الأوساط الفنية والسينما عشق هذا النوع من الجدل المرتبط بالغموض الإنساني، ولذا في أكثر الأعمال السينمائية المتتبع مسيرة فنان، ويحدث هذا بشكل ملحوظ لسلفادور دالي.

منذ عدة أشهر كتبنا عن فيلم روائي بريطاني عن مرحلة قصيرة من حياة دالي بعنوان "قليل الرماد" توقف عند دالي الشاب حين تعرَّف على زميليه أندريه بريتون ولوي بونويل وشكل الثلاثة معًا ما يسمى بالاتجاه السريالي في الآداب والفنون خاصة الفن التشكيلي، ممكن مشاهدة فيلم "سلفادور دالي" التسجيلي الطويل الذي أنتجته الإذاعة البريطانية، سوف نرى الوجه الحقيقي للفنان بعدة تنويعات فكأنك ترى الرجل ألف مرة بوجوه متعددة خاصة علاقته بشاربه، وبلوحاته،

وبرجال عصره من أدباء وفنانين من كافة أرجاء الفن وسوف ندخل أيضًا إلى داخل البيضة التي خرج منها دالي وزوجته، وراح يسخر من ميلاده وهو يسكب الدماء واللبن والسمك وأشياء أخرى كانت في رحم البيضة وهو يفخر أنه ينتمي إلى ثقافة البحر المتوسط.

وعلى الفور فإن دالي نفسه في مرحلة متقدمة من عمره وهو المعجب بذاته إلي حد أكبر من النرجسية، يقدم لنا اعترافات متناقضة وهو يردد: "أفضل أن أرسم لوحات رديئة" كي يخبرنا أنه أفضل رسام في العالم، والسبب موهبته وثقافته وينفي عن نفسه أنه مجنون حدث هذا عام ١٩٨٤، كان ذلك الفنان مريضًا ويضعون في أنفه ما يساعده على التنفس ثم يأخذونه إلى المستشفى قبل أن يموت.

لكل مخرج طريقته في تتبع حياة الفنان من أجل أن يأتي لنا بالجديد فلوحات دالي موجودة في المتاحف والألبومات، لكن المهم هو ربط الفنان بالأماكن والشخصيات المؤثرة في حياته، خاصة المتحف الموجود في كتالونيا حيث ولد وأصدقاء الشباب: بريتون ولوركا ولوي بونويل، وهو يردد: كل مفاهيمي أعيد ترتيبها في مرحلة المراهقة وكل أفكاري تكوَّنت هناك في متحفي .

إذن لوحات دالي الباقية بعد حياته الطويلة، مرتبطة بحياته الشخصية وسلوكه، فالرجل رسم كل ما يحيط به وأغلب من عرفهم ابتداءً بنفسه وأصدقاء الشباب، ثم زوجته الروسية الأصل "جالا" وبالطبع فنانة مثل "أماندالير" لقد وضعهم جميعًا في إطار من الحلم

والألوان والتداخلات والتركيبات وشمولية العالم ومخلوقات أحبها دومًا خاصة النساء والأحصنة.

فكرة الحلم مرتبطة بما تعلَّمه دالي من المدرسة النفسية كما أسسها "فرويد" كما أنها مرتبطة بحركة الحياة وسكون الموت.. أزوره كل يوم الموت والحياة لهما مفهومان مختلفان، يمثلان الفن الإسباني من الصعب أن نتكلم عن الفن الإسباني دون أن نستخدم هاتين الفكرتين: الحياة والموت، هذا التناقض يؤرق الفنان خاصة الموت الذي يحس أنه قريب منه فقد سبق لأبيه أن مات لذا فرغم ضخامة الأشياء والتكوينات فالموت موجود في لوحاته إلى جانب الحياة وسعى إلى تجريده الاثنان من الأزمنة والأماكن، إنه يرى الموت في الحلم وهكذا جاءت السريالية وعاشت من خلال الفنان وزملائه رِدحًا طويلًا من الزمن.

لا يمكن أن نتعرف على دالي ومدرسته إلا من خلال مجموعة الأسماء التي مرت بحياته خاصة فترة التكوين ليس أصدقاء فقط بل أيضًا الأسرة، فقد رسم أباه وقد لمعت عيناه بشكل ملحوظ ورسم أخته ونفسه من منظور مختلف.

وقد بدت السريالية في مراحلها المبكرة عند دالي من خلال لوحات وتفسيرات فهو يرى أن السريالية ثورة فنية واجتماعية، فاللوحات من الصعب تحديد الزمن والمكان فيها.

ولأننا أمام فيلم تسجيلي طويل، فإن المخرج يستعين بأشخاص معاصرين ارتبطوا برحلة دالي، مثل مدير متحف دالي الذي رأى أن اللوحات تصور الأشياء بطريقة غير مألوفة المنظر بشكله الغريب فوق المدينة.

ويرى بكل بساطة أن السريالية تعني تقديم الصور التقليدية بشكل غير مألوف وقد قدم زملاؤه: الفنانون والأدباء أعمالهم بشكل مختلف مثل فيلم "الكلب الأندلسي" ليونويل، الذي اعتبر غريبًا حين تم إخراجه في عام ١٩٢٨ لكنه صار عملًا تقليديًا في سنة ١٩٦٠ وهذا الفيلم يقدم الأشياء على طريقة السرياليين، وشارك دالي في تأليفه مع المخرج فهناك مثلا رأس حمار بتنويعات مختلفة قريبة من بيانو يصدر موسيقى.

وقد قدم الفيلم تسجيلاً للفنان السريالي ماكس أرنست عام ١٩٦١ وهو يتحدث أن السرياليين رسموا اللوحات الغرائبية، مثلما رسموا اللوحات التقليدية، وقد اتجه الفنانون إلى التجريد ووسط هذا النوع فإن هناك وجه جالا على سبيل المثال، يبرز فوق تكوين تخيلي يحتاج إلى تفسير.

هكذا فعل السريإليون أن فرضوا فنًا قابلًا للجدل والنقاش ما يجعلك تفكر، هل هذا رجل مجنون، هل هو مهووس بشاربه الذي رأيناه عبر الزمن قد اتخذ أشكالا غريبة للغاية، بشكل يؤكد أن الفنان وكل من احتذوا التجريب في الآداب والفنون ليسوا أبدًا من المجانين في أروع

التفاصيل في لوحات دالي، وما أبرع التكوين الهندسي الموجود في اللوحات ما يدعو إلى البحث عن الفهم والتفسير، فمثلا ماذا تعني الساعات المرنة، سوى أن نبهت الأدباء، مثل ويليام فوكنر في روايته "الصخب والعنف"، إلى ما يُسمى بالزمن المرن سواء لدى العقلاء أو الذهانيين.

وسوف يحول الفنان الحياة التقليدية إلى أضغاث أحلام كان يرسم الفارس المناضل السويسري ويليام تل بشكل مختلف ولا مانع أن تكون السيدة العذراء في لوحات عديدة بوجه زوجته جالا، وهي صاحبة وجه به الكثير من العيوب يختلف تمامًا عن الوجوه البريئة للسيدة العذراء في الفنون التقليدية.

وقد تحدَّث فنان سريالي إسباني عن وجوه الشبه والاختلاف بينه وبين دالي، فلكل إنسان منا وعيه وأيضًا لا وعيه، ومن هنا تتباين الأحلام ورموزها عند الفنانين.

لقد رأى دالي مثلًا الحياة مليئة بالعواميد والتشكيلات الفراغية، وكانت للإضاءة مكانتها في لوحاته التي رسمها في الأربعينيات وعندما سافر إلى الولايات المتحدة التي لم تبد إعجابًا بالتجريب إلا في حالات قليلة مثلما فعل آندي وارول، فإن بيكاسو قال عند نزوله من الطائرة "أنا سريالي وهذه حقيقة" رغم ذلك أسس الأمريكيون متحفًا يحمل اسم الفنان، تم فيه اقتناء من أعمال الفنان وأصبح ملتقى لكافة الفنانين الذين رأوا في التجريب صورة حقيقية لتصوير الحياة بشكل مختلف واللوحات

في هذا المتحف تؤكد أن كل شئ مرن في اللوحة: الوجوه، والساعات، والجيتار.

ولا ينسى دالي أن يذكرنا أنه من أبرع الفنانين فهو قادر على رسم لوحات كلاسيكية خاصة فيما يسمى بالمرحلة الأمريكية، فهو يرسم لهم رئيسهم روزفلت فيما يشبه رسوم القرن الثامن عشر وأيضًا النساء لأن هذا يعجب الأمريكيين، وهنا يبدوا الفنان متناقضًا قادرًا على التنوع، وعلى جانب آخر فإن دالي الذي يؤكد دوما أنه غير مجنون يقوم بأفعال مزاح أقرب إلى الجنون، ففي مأدبة جمعته مع الممثل بوب هوب، فوجئ الجميع أن الأطباق بها ضفادع حية، وسرعان ما يتبادلون المزاح، كما أن هيتشكوك يستعين بدالي لرسم لوحات تعبر عن حالة البطل الذُهانية في فيلم "المأخوذ" عام ١٩٤٥ والفيلم تجاهل بشكل ملحوظ تجربة دالي في فيلم الخيال العلمي "رحلة عجيبة" الذي تدور أحداثه داخل جسم الإنسان عام ١٩٦٦، وقد تحدث هيتشكوك أن الظلال السوداء التي يضعها دالي في ديكورات أفلامه تعبر عن العالم السريالي، وقد عاد المخرج بهذا النوع من الديكور في عام ١٩٥٨ من خلال فيلمه "الغرب عن طريق الجنوب العربي."

تبدو صور العالم المألوفة وقد تغيَّرت تمامًا عند دالي خاصة ما يتعلق بالسيد المسيح وأمه، مثل إعادة رسم لوحة تمثل الصلب وأيضًا لوحة "العشاء الأخير" التي رسمها دافنشي، وذلك عكس ما اعتدنا رؤيته من وقار ملحوظ في اللوحات القديمة.

لم يحس دالي أيًا من الثوابت ولم يسخر منها مثلما فعل زملاؤه الروائيون، بل رأها في أحلامه، وعالمه غير الواقعي فهذه اللوحة التي تصورها جالا في صورة السيدة العذراء قد امتلأت بالتفاصيل، والإضافات وقد رسمها دالي أكثر من مرة، مرة جالا وحدها في صورة قديسة ومرة أخرى وهي إلى جوارها زوجها كما أن الرسام يندمج داخل اللوحة ويمسك برمح من الخشب لمهاجمة الخرتيت الحقيقي الذي يرسمه ويمزق اللوحة بعد الانتهاء منها، وأغلب الظن إنها ديكور لمسرحية كتبها يوجين أونسكو، أبرز من عمل تجريبي في المسرح طوال القرن العشرين.

وقد أثار دالي الجدل دومًا فيما يفعله في السينما والمسرح وأيضًا في مجال الإعلانات وقد رأيناه يأكل من الشيكولاتة التي يعلن عنها بشكل ساخر، وهو يردد "أنا مجنون بشيكولاتة لانفن."

ومن الواضح أن صناع الفيلم قد سعوا إلى التوغل في عصر دالي بشكل ملحوظ، فيرسم أحد الوجوه التي رسمها صديقة السريالي رينيه ماجريت، بشكل بيضاوي وهو تشكيل لم يلجأ إليه ماجريت أبدًا.. وخصص الفيلم جزءًا خاصًا عن جالا التي تمني لو تزوجها كل رجال العالم، لمعرفة الفارق الملحوظ بينها وبين النساء الأخريات لقد رسم هذه المرأة الساحرة التي كانت زوجة لأحد أصدقائه، وتركته من أجل الرسام بشكل مختلف وجديد ملئ بالتفاصيل فصبغها بالرمز الديني ويتحدث الفنان عنها مؤكدًا إنها تؤمن بالله، فالله يجب أن يكون موجودًا، وفي هذه

اللوحات فإن جالا تعلق الصليب حول عنقها، ومن حولها تتناثر الزهور البيضاء..

وعلى طريقة الفنان وعلاقته بالسلطة فإن دالي قبل أن يموت راح يعدد مآثر ملك إسبانيا، ويدعو لمسقط رأسه كتالونيا، ويردد دالي وهن شديد، يجب ألا يحدث العباقرة.

ثم ترى عدة لوحات تصور الساعات التي تعبر عن الزمن المرن الذي عاشه. هذا الزمن الذي أثار جدلًا ملحوظًا في كافة الأوساط الفنية والأدبية، ومصطلح لا يعرف الخبو ولا التلاشي.

تولوز لوتريك..

الطاحونة الحمراء

هل هذا التكوين الجسماني وتلك الملابس والأماكن التي ارتبط بها وعاش فيها، واللوحات والإعلانات التي تركها وراءه تجعل من "تولوز لوتريك" شخصًا جدليًا يدفع بالأدباء والسينمائيين إلى التأليف عنه، ورغم هذا التركيب الجسماني الغريب فإن النساء اللاتي دخلن حياته قد شعرن بالهوس تجاه، والدليل ما حدث مع "ماري" إحدى عشيقاته التي وقفت علي باب منزله تتوسل له أن يفتح لها الباب،

وإنها لا يمكن أن تعيش بدونه دون أن يتحرك من مكانه، ولا شك أنك مهما شاهدت من مواقف في حياتك فلن ترى امرأة تتوسل إلى حبيبها ألا يغلق باب جنته أمامها، ثم ذهبت منكسرة، وهنا فقط قام الفنان ليتفح الباب لكنها كانت قد غادرت إلى الأبد. إنه الفنان الفرنسي "تولوز لوتريك".

لا شك أنه سبق مواطنه "تشارلي تشابلن" في اختيار هذا المعطف الغريب، ولا شك أنه مختلف عنه تمامًا، يتوكأ على عصا رغم صغر سنه، وله لحية كثيفة مميزة، يبدو تقليلديًا في ملابسه وسلوكه، وقد

عاش أبواه بعد رحيله لسنوات طويلة وأذكر أنني عندما قرأت عنه للمرة الأولى منذ سنوات أنني تصورته صورة مشابهة من "تشابلن" رجل عبثي ساخر وأن التعليقات التي نشرت بمصاحبة المقال كانت تعني السخرية والغرابة، فهو مثلا يكتفي بالغفو عدة دقائق ليستيقظ بالغ النشاط لعدة أيام، وقد زاد هذا الإحساس بعد مشاهدة فيلم "الطاحونة الحمراء" إخراج "باز ليومان" عام ٢٠٠١، وهو عمل استعراضي يؤكد أن "لوتريك" عاش أغلب حياته في أجواء من البهجة، وداخل ملهى باريسي لا يكاد ينام ومن هنا فهو صانع بهجة يرسم الراقصات، وأجواء الاستعراضات وقد أكدت على ذلك المشاهد الأولى من فيلم "الطاحونة الحمراء" الذي أخرجه "جون هيستون" عام ١٩٥٢، وفاز آنذاك بجائزتي أوسكار، فالفنان جالس إلى مائدته دون أن ترى وجهه يرسم العديد من اسكتشات لوحاته التي تعبر عن بهجة الرقص الجماعي الذي يقدم ليلا في هذا الملهى دون أن يتغير الإيقاع منذ القرن التاسع عشر حتى الآن، لابد أن تحس أنه ترك أثره في عظماء الرجال بدءًا من "تشابلن" وحتى "أوسكار مانتسيرات" بطل رواية "الطبلة الصفيح" لـــ"جونتر جراس" الفائز بجائزة نوبل، وأيضًا صديقه الرسام "موديلياني".

"هنري تولوز لوتريك" المولود في ٢٤ نوفمبر ١٨٦٤، ولم يعش سوى سبع وثلاثين عامًا حيث مات عام ١٩٠١، تربى وسط أسرة ميسورة من النبلاء الفرنسيين، عاش طفولة سعيدة إلى أن هجر الأب زوجته فقرر الصغير أن يحتج على هذا الموقف فسقط من فوق السلم، وأعلن الأطباء أن ساقه لن تنمو قط، وعندما صار شابًا قرر السفر

للإقامة في باريس، وعمل بالفن التشكيلي في فترة كانت من أكثر العصور تمردًا وتجديدًا، وازدهارًا وهي العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وما بعدها حتى توفي وهو دون الأربعين بكثير مثل الكثير من أقرانه وهم "فان جوج" و"موديلياني".

وقد استطاع الرسام أن يعيش لفنه في المقام الأول، فهو ينتمي إلى المدرسة ما قبل الانطباعية عاش وسط البوهيميين، وأقام مرسمه في حي مونمارتر، بشارع فوربورج، بالإضافة إلى رسومه الكثيرة في مجلة "الضحك" التي تعكس روحه المرحلة الساخرة وهو الأمر الذي لم يلتفت إليه الفيلم بالمرة، تدور أحداث فيلم "مولان روج" حول المسيرة الفنية للفنان "لوتريك" قام ببطولته "جوزيه فيرير" وهو ممثل طويل القامة صورته لنا الكاميرا طوال الفيلم إلى أنه أقرب إلى القزم، ولم يحتو الفيلم على أسماء أخرى مشهورة عدا "زازا جابور" التي أدت دور الراقصة "جين دافريل" التي لعبت دورًا رئيسيًا في حياته فهي ملهمته ونموذجه الفني، إلا أن الممثلة "كوليت مارشان" التي أدت دور العشيقة والموديل "ماري" بدت أفضل عناصر الفيلم في مجال التمثيل، واستحقت الجوائز العديدة التي نالتها عن هذا الدور.

"تولوز لوتريك" يختلف تمامًا في الفيلم، عن الصورة التقليدية التي سبق أن سكنت ذهنك فهو رجل جاد، لا يكاد يغادر أوراق الرسم، ولا المائدة التي يرسم عليها، لا يرقص، وقليلا ما نراه يبتسم، وكلما عليه أن يجلس في مكان قريب من مكان الرقص ويرسم، الرقص هنا في الصالة

ليس بين ثنائيات ولكنه رقص مجموعات من النساء المحتمشات، فالراقصات لا يملن إلى التعري بل هو رقص استعراضي تؤديه بمهارة راقصات تبدون كأنهن قطعة بشرية واحدة.

بدأ الفيلم كأنه يلتزم بالسيرة الذاتية للفنان دون أن يخل بايقاع المسيرة، فهناك مشهد للرجوع إلى الماضي يأتي إلى ذاكرة "تولوز" وهو يمشي بين الحقول فيتذكر كيف كان أبوه يعنف أمه قبل أن يطردها من البيت وهو مازال صغيرًا، ثم سقوط الطفل من فوق الدرج وفي المستشفي يأتي الأبوان لرعايته، لكن يبدو أن عقد الأسرة قد انفرط، وفي هذه المشاهد السريعة نعرف الحياة الثرية التي عاشها هنري في طفولته، وأنه يمكن أن تكون له وظيفة مرموقة للغاية، لكنه اختار أن يكون فنانًا تشكيليًا، يرتاد ملهى "مولان روج" "الطاحونة الحمراء"، ويصبح أحد معالمها الشهيرة عبر التاريخ.

حياة هذا الفنان ألهمت الكاتب الفرنسي "بيير لومير" بتأليف رواية سيرة ذاتية عن الرسام نشرها عام ١٩٥١، وبدأ المخرج الأمريكي "جون هيستون" كأنه كان ينتظرها بشغف، فأسرع بدفع شركة مترو جولدن ماير لشرائها، ولم يستغرق الأمر إعدادها أكثر من عام لتعرض كفيلم في السنة التالية، وليصبح "تولوز لوتريك" سينمائيًا معروفًا لدينا بوجه الممثل "جوزيه فيرير" الذي رأيناه في العديد من الأدوار الأخرى لكنه سيظل دومًا أهم من حمل قناع "لوتريك" وسط عدد لا بأس به من أفلام كثيرة روائية طويلة وقصيرة.

سوف نكتفي هنا بالحديث عن فيلم "جون هيستون" فالفيلم الذي يحمل اسم المخرج "باز ليومان" مستوحى من مسرحية "غادة الكاميليا" – وليست رواية – وكانت الشخصيات الرئيسية اثنين من العشاق يمثلان الكاتب والراقصة ابنة الليل في فيلم "هيستون" كانت في حياة "تولوز لوتريك" ثلاث نساء الأولى راقصة، والثانية عاهرة هي "ماري" التي ترقت بشكل ملحوظ من خلال علاقتها به، وصارت نموذجه المفضل للرسم، وعندما رفض أن يفتح لها باب مترله لم تعد إلى عالم العهر بل فضلت أن تعمل بالتسول حتى أصابها المرض فماتت وقد توسطت عشيقته الثالثة "ميريام" لإعادتها إليه خاصة أنه رسم أهم لوحاته من ملامحها النسائية فامتثل لها وذهب إلى مراكز التسول، وعاد بها إلى الدار، لكن المرض الجسدي والنفسي كان قد تمكن منها فلفظت أنفاسها، والراقصة "جين دافريل" هي فتاة من وسط راق أقرب إلى الوسط الاجتماعي للفنان، وليست امرأة ساقطة أمام "ميريام" التي جسدتها الممثلة "سوزان فلون" فهي تتعرف عليه بعد أن خرجت "ماري" من حياته هي أيضًا امرأة راقية للغاية، تتعامل بما تمليه عليها تربيتها، ورغم قوة علاقتها بالفنان الذي كان يمثل روح مونمارتر في تلك الآونة، فإنها تسعي إلى إعادة ماري إلى أحضان عشيقها.

تشعر أن الفيلم سرعان ما انتقل من الجانب الليلي الخاص بالفنان، إلى الحياة الخاصة حيث أنوار باريس وأنه يرسم أجواء الملهى الليلي للانتقال إلى الجانب العاطفي والخاص به، وهذه سمة في السير الذاتية عن الفنانين التي تتحول إلى روايات فقد رأينا الجانب الإنساني

للفنان من خلال علاقاته النسائية، وخاصة مع "ماري" التي استنجدت به في إحدى الليالي كي يصحبها، ويحميها من الشرطي الذي كان يريد القبض عليها فادعى أنها صاحبته وأخذها معه إلى البيت، وبدأت تمر برحلة التطهر فتخلع وجه العاهرة، وتصبح سيدة صالونات، تأخذ قناعها الجديد، من حبه لها وقد عاش معها أجمل أيامه، حتى صارت مثل بيجماليون، يمكنها أن تتمرد عليه وتطمع في أمواله فطردها من صحبته وهما في المولان روج، وسرعان ما أدركت "ماري شارليه" فداحة خطأها، فوقفت إلى جوار الباب تتوسل إليه أن يفتح لها وانهارت قبل أن تذهب وأكاد أجزم أن مثل هذا المشهد المؤثر لم تقدمه السينما قط، وبدأت المرأة تعيش حياتها الجديدة دون أن تعلم أن حبيبها غفر لها صلفها، وأنه فتح لها الباب بعد المغادرة، لم تحول إصابة "تولوز لوتريك" في ساقية دون أن يتصرف بكبرياء، فهو الذي استيقظ عام ١٨٧١ من النوم على مرض هشاشة العظام، رغم أن الفيلم قدم أسبابًا درامية، إلا أن الواقع اختلف، فقد عرف الأب أن ابنه لن ينمو، وأن طوله سوف يتوقف عند المائة واثنين وخمسين سنتيمترًا، وتقول المعلوماتية أن الفنان كان ضخم الأنف والشفاه إلا أن السينما منحته وجهًا وسيمًا لتعويض تشوهاته الخلقية الأخرى، وقد تغيرت أسماء وأدوار النساء في الفيلم عن حياته الشخصية ففي الواقع ارتبط الفنان بمطربة تسمى "إيفيت جيلبير" وكانت الموديل المفضلة لديه هي "سوزان فالادون" وهذا هو حال السينما تغير كما تشاء، وإن كان الفيلم قد حكى الواقع الخاص بوفاته، فهو رجل يشرب بكثرة ويهوى عمل خليط من أنواع متعددة من الخمور كبست على

جسده، وأودت بحياته، كما أن الواقع يقول أن الفنان أصابه مرض الزهري، وذلك سبب كاف لابتعاد النساء عنه، لكن الفيلم أعطى جوًا رومانسيًا عاشقًا للفنان.

ومن المهم أن نعرف مصائر الفنان بعد وفاته، ففي الفيلم رأينا الرسام نائمًا فوق سرير المرض يستمتع بالتخيل، وهو يرى كافة الراقصات اللائي يعرفهن بمن فيهن "جين دافريل" قد جئن كي يقدمن له العرض الراقص الأخير، قبل أن تغفو عيناه للمرة الأخيرة، أما قصة صديقه الوفي "موريس جويان" الذي سعى لسنوات طويلة إلى تجميع أماله من اللوحات وملصقات الشوارع التي كان يرسمها للدعاية للملاهي والراقصات.

حتى تمكّن من بناء متحف يضم هذه الأعمال أقيم في مسقط رأس "لوتريك" وتلك القصة تحتاج إلى فيلم إضافي حيث يتم هناك تجميع الذكريات والمقتنيات منها "٧٣٧" لوحة وخمسة آلاف ملصق، ورسوم صحفية تصور نساء ذلك العصر سواء الجميلات العاريات أو اللائي أصابتهن الشيخوخة، وقد عكست هذه الرسوم كافة أشكال الحياة الباريسية كما رسمها فنان عاش عمرًا قصيرًا لكنه رسم الكثير من الأعمال.

عالم فريدا كالو..

تعالوا نتفق على تسميتها "أفلام الأقنعة" حيث المطلوب من الممثل والمخرج، والماكيير أن يجعلوا ملامح الشخصية من الخارج تشبه إلى حد كبير، أو لدرجة التطابق، الشخصية المشهورة التي يقدم الفيلم بعضًا، أو بعضًا من كل، عن سيرتها الحياتية،

وهذا النوع من الأفلام صار محببًا للغاية لدى المشاهدين بما يعنى أنه عمل "حقيقي" مليء بالصدق، كما أنه يمس إحدى الشخصيات القريبة وجدانياً من الناس في مجالات الإبداع، أو في الحياة العامة، خاصة الفنانين بكافة أشكالهم.

ولا شك أن الشخصيات التي شغفت بها السينما، من الفنانين التشكيليين، قد عاشوا حيوات مليئة بالجدل والصخب، ممزوجة بالمآسي والفشل والنجاح، وأن أغلب الشخصيات الموجودة في هذه القصص كانت، وربما لا تزال، موجودة حولنا، وإنها شاركت في نسج قصة حياة الفنان، خاصة أن العالم الخاص للفنانين التشكيليين مليء بالغموض والسحر والإبداع، وأنه في عالم اللوحات وراء كل لوحة شاهدها الناس توجد قصة تصلح أن تكون فيلمًا، أو أن تكون جزءًا من الفيلم ولذا، فإن هناك ثلاث حالات من المشاهدة للقصص التي تعبر عن سيرة خاصة للفنان بشكل عام، والفنان التشكيلي بشكل خاص.

إما أن المشاهد لا يعرف شيئًا بالمرة عن الشخصية التي يراها في قصة الفيلم، فتبدو له مدهشة، ويحاول أن يتعرف على المزيد من التفاصيل حول الحياة الخاصة للفنان، من خلال القراءة عنه.

أو أن المشاهد يكون على معرفة ما وثيقة، أو غير ذلك، بالفنان، وأن يتابع سيرته، ويعرف لوحاته، وهذا العدد من المشاهدين قليل للغاية قياسًا إلى ملايين المشاهدين، فيبدو كأنه يتابع ما يعرفه، وهو يمر في أغلب الأحيان بحالة مقارنة بين القناع الذي يرتديه الممثل وبين الوجه الحقيقي للفنان، حيث أنه في حالة فيلم "فريدا" من إخراج جولي تيمور حول سيرة حياة فريدا كالو يعرف تمامًا أن الممثلة سلمى حايك تنتمي إلى الثقافة نفسها للفنانة، وإنها أقرب في الشكل إليها، والمشاهد هنا مقتنع تمامًا أنه يشاهد "كالو" بقناع سلمى حايك والفنان دييجو ريفيرا بوجه الممثل أنطوني موليود وهكذا بقية الشخصيات.

أو أن المشاهد قد يكون غير مهتم بالمرة بالشخصية، ولن تثير لديه أى فضول معرفي وهذا النوع من المشاهد لا يهمنا كثيرًا

في عالم الفن التشكيلي، فإن ليس كل من قدمت حولهم سير خاصة، تمتعوا بنجومية كبيرة، ولكن أغلب الفنانين التشكيليين الذين قدمت سيرهم الخاصة في أفلام سينمائية، حظيت أسماؤهم وأعمالهم بشهرة مميزة، وارتفعت قيمة أعمالهم الفنية عبر التاريخ، وقد تباينت الأسماء، حيث أن نجوم الفن التشكيلي الكلاسيكي أثاروا قريحة الناس شاهدنا قصصهم على الشاشة، مثل جويا، ورمبرانت، ومايكل أنجلو، ثم

حظي فنانو القرن التاسع عشر باهتمام ملحوظ، وعلى رأسهم فان جوخ، وجوجان، ثم تعددت الأفلام التي حكت لنا عن بيكاسو، وموديلياني، وأيضًا الفنانة فريدا كالو "١٩٠٧ – ١٩٥٤".

سوف نكون أقرب إلى النوع الأول من المشاهدين، الذين لا يعرفون شيئًا عن الفنانة، ولا عن سيرة حياتها، فيشاهدون الفيلم الذي تم إنتاجه عام ٢٠٠٢، أي بعد رحيل الفنانة بـــ ٥٨ عامًا، والفيلم مستوحى من كتاب حول سيرة حياة الفنانة كتبه هايدن هيريرا عام ١٩٨٤، وهو إنتاج أمريكي، اشترك في كتابة النص السينمائي "السيناريو" أربعة من الكتاب المذكور المعنون "سيرة فريدا كالو"، هؤلاء الأربعة هم كلانسي سيجال، وديان بحيرة، وجريجورى نافا، وآنا توماس، ولا شك أن آلية تعامل أربعة كتاب سيناريو مع كتاب كمصدر مختلف من فيلم لآخر، لكن لا شك أنهم قد رأوا أمامهم شخصية درامية عاشت حياة غريبة، ليس فقط كفنانة، ولكن كإنسانة تألق نشاطها في النص الثاني من القرن العشرين.

الكتاب المذكور يقدم سيرة عن حياة فريدا، بداياتها ومولدها، كما سنتعرف فيما بعد، لكن الفيلم يبدأ مباشرة عام ١٩٢٥، يوم أن سقطت حافلة قوية على الطريق بالسيارة التي كانت تقلها فتاة في الثامنة عشر من العمر.. لم تكن فريدا قد تشكلت كفنانة، وصارت أقرب إلى النضج وهي في مقتبل حياتها، هذا الحادث كما يروي الفيلم، قد غيّر مسار حياتها تمامًا، وقد جسدت المكسيكية سلمى حايك الشخصية حيث

نراها تعاني من الحادث بدرجات متفاوتة ابتداءً من حدوثه، ولمرحلة متقدمة من حياتها، ويرى الفيلم، أنه لولا الحادث، ما تم اكتشاف موهبتها كفنانة، حيث أن أسرتها تجلب لها كل ما يلزم لرسم لوحات، كى تقضي وقت النقاهة، حيث أن المشهد يبدأ من خلال لوحة، ثم يبدأ في التلاشي ببطء ملحوظ.

ثم يدخل بنا الفيلم إلى علاقة غير سوية بين الفتاة النحيلة المصابة، مع فنان بدين بشكل ملحوظ يجمع بين الغلظة والرقة، وهو أيضًا معروف في تاريخ الفن التشكيلي يُسمى ريفيرا دييجو، وهو مشهور بجدارياته، ونحن أمام فنانة واثقة في نفسها رغم إصابتها، وفي فنها، وعليه تتشكل علاقتها بالفنان البدين، تقول له في مرحلة من علاقتهما، إنها تتوقع منه الولاء إن لم يكن الإخلاص، ولا شك أن هذه العلاقة الثنائية أعطتها المزيد من الثقة في نفسها، وفي فنها، فالفارق في العمر بين الاثنين ليس قليلاً، لذا فإن وقوفه بجانبها وزواجه منها يقللان من فترة العلاج، والنقاهة.

إنه ثنائى متحاب، لكنه ليس مخلصًا، ذلك الإخلاص الذي بدا أنهما لم يتوافقا عليه، فهو رجل لحمي بطبيعته، متعدد في علاقاته النسائية، في الوقت الذي يكشف الفيلم عن علاقات مثلية تربط بين الفنانة ونساء أخريات، إما كتصرف طبيعي ردًا على خيانة الزواج، أو أنه ميل ذاتي للفنانة التي تعيش مثل هذه الظروف، بالإضافة إلى إنها أيضًا تخون زوجها إذا أتيح لها ذلك.

وقد ركز الفيلم على هذا الجزء من سيرة حياة فريدا كالو.. فالزوجان يسافران إلى مدينة نيويورك، حيث سوف يعرض ريفيرا جداريته الشهيرة "رجل في مفترق الطريق" في مركز روكفلر، وفي أثناء هذه الرحلة، تضطر المرأة إلى الإجهاض، بينما تموت أمها أثناء غيابها.

وفي رأيي أننا أمام فيلم عن ريفيرا وزوجته كالو، أكثر من أننا أمام فيلم عن الفنانة وحدها كما يعلن بذلك عنوان الفيلم، ففي الولايات المتحدة، يعاني الفنان من مشكلات ترتبط بأيديولوجيته كشيوعي، في مواجهة الرأسمالي نيلسون روكفلر، ويجد نفسه مضطرًا للعودة إلى المكسيك .

ويتابع الفيلم رحلة الفنان السياسية تساعده في مواقفه زوجته التي تكتشف أن زوجها على علاقة عاطفية مع أختها كرستينا، ويكون مصير ذلك هو الإقبال على الكحول بشكل صار إدمانًا.

فيما بعد تتحسن العلاقة بين الزوجين، عندما تتوطد علاقتهما بالزعيم الشيوعي ليون تروتسكي الذي حصل على حق اللجوء السياسي في المكسيك، هذه الشخصية جسدها ممثل بريطاني بالغ الأهمية هو جيوفري رش، ويمعن الفيلم في وصف علاقات غير مألوفة، حيث يشير إلى أن علاقة جنسية نمت بين الشيوعي العجوز، والفنانة الشابة، وعندما تعود زوجته من رحلة إلى باريس يموت تروتسكي مقتولاً، وتذهب الشبهات نحو الزوج.

السينما الأمريكية، لم تشأ أن تقدم فيلمًا بمثابة سيرة حياتية عن الفنانة التشكيلية بقدر ما حاولت أن تقدم فيلمًا سياسيًا، تدين فيه الشيوعين من جديد، وتصف المنتمين إليها على أنهم يتصرفون بكل هذا التناقض الإنساني، من خيانة متبادلة بين الزوجين، وعلاقات غير مشروعة، أكثر من الاهتمام بالجانب الخاص بكالو كفنانة ذات سمات فنية متميزة، وإن كان الفيلم قد توقف عند رسم بعض اللوحات الشهيرة في حياة الفنانة، خاصة صورها الخاصة الأقرب إلى البورتريه.

لا شك أن المتفرج الذي لم يكن على معرفة باسم فريدا كالو ومكانتها كفنانة، عندما يشاهد مثل هذا الفيلم، فإنه سوف يندفع من أجل إشباع فضوله للتعرف على المزيد من حياة كالو حيث انتهت أحداث الفيلم برحيل الفنانة، والتركيز على معرضها الكبير الذي أقيم في المكسيك، وقد رأينا إلى أي حد كانت العلاقة متشابكة بين الزوج وامرأته، فهما ينفصلان بالطلاق، وفي مرحلة لاحقة من العمر يعاودون الارتباط من جديد بينما تنهار صحتها، لدرجة أن الاطباء يقومون بقطع ساقها.

وبالبحث عن سيرة حياة فريدا كالو، فإن هناك تناقضًا بين تواريخ ميلاد الفنانة، حيث تشير بعض المصادر إلى إنها ولدت عام ١٩٠٧، ثم هناك مصادر تشير إلى عام ١٩١٠، والأول هو التاريخ الصحيح، بما يعني أن الفنانة ماتت عام ١٩٥٤ عن عمر يناهز السابعة والأربعين، فهي مولودة في نيو مكسيكو، لأب مهاجر يهودي ألماني أما

الام فهي مكسيكية والذي رواه المؤلف في كتابه عنها، إنها أصيبت بشلل أطفال في قدمها اليمنى وهي في سن السادسة، ولا شك أن الحادث الذي بدأ به الفيلم قد أعطى أثرًا قويًا باعتبار أن الإصابة جاءتها في القدم المصابة، وقد ترك الشلل لدى الفتاة أثرًا نفسيًا بالغ السوء لفترة طويلة من حياتها، حيث أشار الكتاب أن فريدا تبعًا لإصابتها لم ترتد الفساتين طوال حياتها أسوة بمن حولها من البنات خاصة أختها كرستينا فقد كانت ترتدي الجوارب الصوفية في شهور الصيف من أجل إخفاء إعاقتها.

في عام ١٩٢٥، تعرضت لحادث حافلة كانت تقلها إلى منزلها، وتجسدت مأساة حياتها أكثر، حيث اضطرت للتمدد فوق ظهرها دون حركة طوال عام بأكمله، بعد أن كسر العمود الفقري والترقوة والحوض، وتم خلع قدمها اليمنى، وهنا بدأت رحلتها مع الفن، حسبما صوَّر لنا الفيلم.

وجدت نفسها أمام مرآة لا ترى فيها سوى وجهها، فطلبت ريشة وألوانًا، وأوراقًا لترسم، وبدأت برسم نفسها كما تراها، فوق هذا الفراش ولدت فنانة موهوبة.

في هذه اللوحات التي رسمتها فريدا، بدا الألم في مرآة خاصة، ينعكس على وجه فريدا الأخرى الموجودة في اللوحة، وجه مستطيل، ورقبة طويلة، لا تعرف الشفاه أي طريق للابتسام، أو الفرحة، كما أنه وجه يخلو من الجمال ..

ولعل هذا الصدق في التعبير عما يجول بداخل الفنان من مشاعر قد وجد هوى لدى الفنانين التشكيليين في تلك السنوات التي امتلأت بالتجريب، والمحاولات ويشير المؤلف في كتابه أن لوحات فريدا كالو كانت أقرب إلى الواقعية، سهلة الفهم تجمع بين التوثيق والتقرير، يمكن للمشاهد البسيط أن يستوعبها بسهولة.

توقف الفيلم عند الأشخاص الذين مروا بها، ابتداءً بزوجها ريفيرا، وأيضًا تروتسكي وزوجته وقد عانت الفنانة من الأمراض، والازدواجية الجنسية في حياتها، وإن كان الفيلم قد أعطى تفاصيل أكثر في هذه الناحية، وفي أواخر حياتها أصابها التهاب رئوي، وقيل أن وفاتها كانت بسبب تناول جرعة مفرطة غير مقصودة، وقد تم ذلك بعد أن تم بتر رجلها اليمنى حتى الركبة، وذلك بسبب الغرغرينة.. وتجمعت أسباب صحية أخرى منها الالتهاب الرئوي.

حياة مثل هذه المرأة الفنانة تناسب عمل أكثر من سيرة ذاتية، ويمكنها أن تصنع فيلمًا حصل على العديد من الجوائز، في محافل سينمائية عديدة خاصة الممثلة سلمى حايك.

وقد كانت هذه المرأة زخرًا في حياة زوجها الفنان المشهور الذي علمها أيضًا في بداية حياتها كيف ترسم لوحة عظيمة، وهو الذي كان يكبرها باثنين وعشرين عامًا، وهو الذي كتب في سيرته الذاتية: "إن اليوم الذي ماتت فيه فريدا كان أكثر الأيام مأساوية في حياتي لقد اكتشفت مؤخرًا أن الجزء الأفضل من حياتي كان حبي لها."

هذه المرأة التي لم تكن جميلة، خلبت لب فنان من طراز دييجو ريفيرا، وسياسي مثل تروتسكي رغم قدمها الملحوظ، والحاجبين الكثيفين كأنهما شارب ثقيل فوق عينيها، فهي امرأة عرفت الحوادث المؤلمة، وأجرى لجسدها العديد من العمليات، ورشق في عظامها الكثير من المسامير، وارتدت المشدات من أجل إصلاح ظهرها، وعليه فقد قضت تسعة أشهر عام ١٩٥٠ في المستشفى، ورغم ذلك فقد كانت امرأة ذات إرادة حديدية، حيث أصرت على حضور افتتاح معرضها الأول عام ١٩٥٣، فذهبت إلى هناك في سيارة إسعاف، وراحت تتحدث إلى الجمهور.

لم يتوقف الفيلم بالطبع عند مرحلة ما بعد وفاة الفنانة، حيث أن البيت الأزرق الذي عاشت ودفنت فيه، صار مزارًا فنيًا، وتنامت شهرة الفنانة عالميًا، لدرجة أن صار بيتها متحفًا عالميًا، وقد أثارت هذه الحياة الكاتب هايدن هيريرا لينشر كتابه الضخم عنها عام ١٩٨٣.

والغريب أن السيرة الذاتية للفنانة أشارت أن هذه المرأة الدميمة المليئة بالأوجاع، قد أقامت علاقات مثلية، مع نساء شهيرات عرفن بجمالهن الخارق، مثل الممثلة دو لوريس ديل ريو، وأيضًا مع زوجة الشاعر السريالي أندريه بريتون، ومع الممثلة الجميلة بوليت جودار التي كانت زوجة لتشارلي تشابلن في تلك الحقبة.

الأفلام لا تفسر اللوحات، بل تحكي الحكايات، أما النقاد، فهم الذين يتحدثون عن اتجاه الفنانة ومدرستها، فقد أضافوا فريدا كالو إلى

السرياليين، إلا أنها أكدت أنها كانت ترسم، مجرد "ترسم" لقد وضعت على القماش كل ما يدور بخاطرها، كما أن الفيلم لم يتوقف عند محاولة فريدا التشبه بالرجال، والحرص على ارتداء زي يوحي أنها رجل، إنها كانت تتمتع بشعر طويل يوحي بالبدائية، كما أن الفيلم لم يتوقف عند الرغبة الشديدة لدى كالو في إنجاب طفل خاصة أنه تم إجهاضها عام ١٩٣٤.

السيد تيرنر..

لا تزال السينما العالمية شغوفة بحياة الفنانين التشكيليين وإبداعاتهم وعلاقة كل فنان بلوحاته وبالنساء اللاتي اتخذهن كموديلات، وكيف لعبن دورًا مهمًا في حياة الفنان وكيف صارت النساء أكثر خلودًا من الفنانين أنفسهم في الكثير من الأحيان.

في مهرجان كان الأخير في عام ٢٠١٤، توقف الكثيرون عند مخرج مهم هو مايك لي وفيلمه الجديد "السيد تيرنر" "MR. TURNR"حول السنوات الأخيرة من حياة فنان لا يعرفه الكثيرون من عشاق الفن التشكيلي، إلا من تبحروا بقوة في تاريخ هذا الفن، هذا الرجل الذي عاش بين عامي ١٧٧٥، ١٨٥١ في فترة ازدهار الكلاسيكية، وكان من أوائل من حطموا المقاييس الفنية المعروفة، وأحدث صدمة لدى أقرانه وهو يتعمد أن يضيف ما يشوه الوجوه والأجسام والتركيبات في اللوحات سابقًا في ذلك أبناء المدرسة اللدادية بأكثر من قرن على الأقل، وكان من الواجب إدراجه في قائمة المتمردين على الأشكال الكلاسيكية فهو ابن الريف والأجواء الكلاسيكية، وكان غزير الإنتاج بشكل ملحوظ وقد عاش طويلا بما يسمح له أن يرسم المزيد من الأعمال، وأن يعيش كل ما هو متنوع من التجارب الإنسانية.

اسمه بالكامل "جوزيف مالورد ويليام تيرنر"، ويشار إليه في المراجع العالمية من خلال الحروف الأولة من اسمه "ج. م. و تيرنر" وقد اختار له الفيلم اسم "السيد تيرنر" كنوع من الوقار، وهو يقدم رجلًا كهلًا، بدينًا، ممتلئ الوجه لكنه لا يزال مليئا بالحيوية، هو بريطاني، وقد بدت حيويته من خلال علاقته بمربية المنزل الدميمة، والتي سوف تزداد دمامة بعد إصابتها بمرض الصدفية فأدى إلى تشويه وجهها اسمها "هانا دانبي" وهي أيضًا موديل للفنان يلتصق بها وهي إلى جوار المدفأة يأتي وطره منها دون أي نوع من الرفض أو الاستجابة، وفيما بعد، فإنها تؤدي دورها المطلوب منها، في بيت ملئ باللوحات والمقتنيات الفنية، هي في الأربعين من العمر لا نعرف عنها أي سيرة ذاتية، لا تخرج عن كونها شيئًا في المنزل، أما المرأة الثانية فهي أيضًا موديل، ترملت مرتين اسمها صوفيا بوت، ولن تخرج عن كونها شيئًا منكرًا في المنزل وإن كانت تتمتع بجمال ملحوظ مثل هاتين المرأتين تمنحان للفنان نوعًا من التنهد المريح أو لنقل "فريش" قياسًا إلى زوجته العجوز التي أقر الفيلم لمشهد رحيلها مساحة تتناسب مع جلال الموت أو الفراق.

السيد تيرنر هذا كان رسامًا، ونحاتًا، أو حفارًا حسب نوع النشاط الذي كان يمارسه اتسمت أعماله بالجرأة وكسر كل ما هو تقليدي، وقد اهتم بالتعبير عن الضوء بكافة درجاته وأشكاله في أعماله، وذلك أكثر من اهتمامه بالنموذج الإنساني.

وقد بدا ذلك في الفيلم، حين قام بزيارة أحد المعارض فأمسك بلوحة مبللة بألوان فاتحة، وراح يشوه، أو يكشط النصف الأسفل من لوحات عديدة، وقد اشتهر بلوحاته، المسماة "عاصفة ثلجية"، "قلق برجهام"، "أحكام سفينة"، "كنيسة القديس جون"، وتؤكد المراجع وأيضًا الفيلم، أن هذا الرجل العجوز قد تأثر كثيرًا بمسيرة أبيه الفنان ويليام تيرنر، وأنه ظل طوال حياته يحاول تطبيق ما تعلمه من الأب، وأن هناك التمرد والرغبة في التجديد، كان ميراثًا متأصلًا من أبيه، لكن ما لم يتمكن الفيلم أن يقوله لنا، أن الفنان في شبابه، كان بالغ الوسامة والرشاقة وأنه يختلف تمامًا عن الممثل البريطاني تيموثي ميسول الذي جسد هذه الشخصية، فنحن أمام رجل افتقد الاهتمام بنفسه بشكل ملحوظ، هذا الممثل حصل على جائزة أحسن ممثل في مهرجان كان ٢٠١٤، ولا يعرف أحد ما هي العلاقة بين تصرفات تيرنر في الفيلم وأداء الممثل لهذه الشخصية، وتيرنر الحقيقي فنحن نراه رجلًا فظًا في فمه سيجارته غير مهندم الملابس، دائمًا وحده حتى وإن كان وسط الآخرين، يتجول في الأسواق وفي المناطق الشعبية نراه دومًا بين الناس، لكن لا يخالطهم، ولا يتحدث إليهم كثيرًا، كما أن العلاقات الأسرية التي تربطه بزوجته تبدو واهية للغاية، وعليه فإن أقوى ما يربطه في الحياة، هي اللوحات وقد صارت جدران المترل مرصعة باللوحات، من مختلف الأحجام والاتجاهات، كأن عدة فنانين قد قاموا برسمها، فمن الصعب أن ترى تشابهًا أو توافقًا بين هذه اللوحات، وكأن الجدران قد بُنيت من لوحات ولا نعرف هل كل هذا الكم يعني أن السيد ترينر لم يكن يجد من يشتري

هذه اللوحات في تلك الحقبة الزمنية، بسبب غرابتها عن كل ما هو تقليدي في الفن التشكيلي.

كما أن الفنان سوف يموت وحيدًا فوق فراشه وقد بلغ السادسة والسبعين من العمر إلا من رجل دين جاء لمباركته.

من الواضح أننا أمام رجل عاش مغمورًا ومات وسط تجاهل شديد، رغم أن لوحاته الموجودة في المواقع الخاصة به تؤكد أنه كان فنانًا بالغ المهارة في رسم البورتريه.

وقد بدا ذلك واضحًا في البورتريه الذي رسمه لنفسه وهو شاب في مقتبل العمر ومن المرجح أن بدايات السيد تيرنر كانت كلاسيكية تمامًا، وأنه صار يجدد أو يتمرد في مرحلة لاحقة بعد أن صار عجوزًا بدينًا غليظًا أقرب إلى اللا منتمين.

وقد اختار الفيلم الذي فاز مصوره ديك بوب بجائزة أحسن تصوير من لجنة التحكيم الخاصة بالمهرجان، هذه المرحلة من حياة الرسام دون غيرها ليؤكد على ما يسمي بمرحلة التحول الفني على الأقل عند الكاتب، وهي مرحلة غريبة فالفنان قد توقف تقريبًا عن إنجاز المزيد من اللوحات، وصار عليه أن يحول بعض لوحاته إلى مسخ، يأتي بفرشاة مبللة بالألوان الفاتحة ويحدث تشوهًا في أجزاء من اللوحات، وسط لا مبالاة من الآخرين، فهي لوحاته وهو حر فيما يفعله.

ومثلما اهتم الفيلم بتفاصيل حياة السيد تيرنر في تلك السنوات الأخيرة من حياته صور لنا بالتفاصيل نفسها كيف مات تيرنر فوق سريره ومن قبل ذلك كيف فارقت زوجته الحياة وقد صارت عجوزا بدينة بشكل ملحوظ، ومن قبله رأينا مديرة المترل هانا وقد زاد الصدفية من تشوية وجهها، فصارت تضع على هذا الوجه ما يستر تشوهها، وراحت تخفي نفسها وتتبع سيدها في أماكن عديدة دون أن ينتبه إلى وجودها.

هو عالم بالغ الكآبة والحزن وقد انعكس ذلك على تصرف الكاتب، ليس فقط تجاه الآخرين، بل أيضًا تجاه لوحاته، فهو يقوم بتشويهها عن عمد، دون أي إحساس بالمراجعة كأنه يعرف أنه هكذا سوف يفعل تلاميذه من الفنانين، أو بمعنى أصح من جاءوا بعده، خاصة سيزان في فرنسا، ومن جاءوا معه من الانطباعيين.

هذه هي المرة الأولى التي يقوم فيها المخرج البريطاني مايك لي بالاهتمام بعالم الفنانين التشكيليين، فراح يبحث عن رسام مجهول، وراح يزيح التراب عن الاسم وقدمه بصورة لا نستطيع من خلالها أن نؤكد إن كان معجبًا به، أم يحاول صب لعناته عليه، وهذه هي صورة السيد تيرنر في الفيلم، إنسان يمتلك المتناقضات.

ويعيش في حالة تكيف ملحوظ مع نفسه، مايك لي مولود عام ١٩٤٣، وهو مخرج مسرحي وتليفزيوني، ويشارك أحيانًا في كتابة الأفلام، أخرج فيلمه الروائي الأول "آمال عالية"عام ١٩٨٨، ثم أفلام أخرى منها "الحياة حلوة" عام ١٩٩١، وفي عام١٩٩١ فاز بالجائزة

الكبرى "السعفة الذهبية" في مهرجان كان عن فيلم "أسرار وأكاذيب"، الذي جعل اسمه مدويًا في عالم الإخراج.

وهو الفيلم نفسه الذي فاز بجائزة سيزار الفرنسية كأحسن فيلم أجنبي ومن أفلامه الأخرى "كل شئ أو لا شئ" عام ٢٠٠٢ ثم "سنة أخرى"عام ٢٠١٠.

بول جوجان..
عشرة أفلام لا تكفي

تشابكت الحيوات الشخصية لأعلام الفن التشكيلي، باعتبار أنه من النادر أن يعيش فنان بشكل منعزل عن العالم، ولا شك أن هذه الحياة تربطه بالكثير من الصداقات والعلاقات بغيره من أبناء مهنته، أو من أبرز رجال الثقافة في العالم.

وقد قدمنا في مقالات سابقة الكثير من الأفلام حول سيرة ذاتية ربطت بين مشاهير الفن التشكيلي، وصداقات قوية مثل التي نشأت بين سلفادور دالي والعديد من رجال السينما والأدب، والعلاقة التي ربطت الفنانة فريدة كالو والكثير من الفنانين، وجاءت أهمية هذه الأفلام إنها عبرت التفاصيل الدقيقة لهذه العلاقات، وحرص السينمائيين غالبًا على وصف هذه العلاقات بدلًا من تأريخ حياة الفنان خاصة في السينما الروائية التي تقدم لنا مراحل بعينها من سير الفنانين، مثلما حدث في أكثر من فيلم حول موديلياني، وقد بدا هذا واضحًا في مسيرة حياة الفنان الفرنسي بول جوجان، الذي تكاد سيرته الذاتية تتسع للعشرات من الأفلام، وقد قدمت السينما حول حياة هذا الفنان فيلمين بالغي الأهمية، لم يكونا بالضبط حول سيرة حياة جوجان بقدر ما هما عن صداقات ربطت بين الفنان وآخرين من أعلام عصره.

لم يحمل فيلم "شهوة الحياة" ١٩٧٥ اسم أي من نجوم الفن التشكيلي، فان جوخ، بول جوجان بقدر ما حمل اسمًا محايدًا؛ فالرجلان في الفيلم صديقان يعيشان متعاونان، ومتنافسان، تربط بينهما صداقة قوية ويعيشان الظروف نفسها وقد جسد الدورين اثنان من نجوم السينما لهما نفس المكانة والموهبة والتقدير والتاريخ وهما كيرك دوجلاس، وأنطوني كوين، الأول يعيش فقط لفنه، يستهلك صحته وعقليته من أجله، حتى يصل إلى حدود النهاية، بعد أن فشل كرجل متدين ولم يستطع التوأمة مع المجتمع من حوله، وإن كان قد عشق الطبيعة، وقد تركته إحدى العاهرات بسبب فقره الشديد، وقواه العقلية غير الثابتة، التقاها في دار أبيه فيلجأ إلى صديقه جوجان دائم الانتقاد له، ويعيشان معًا ويبدأ في تجريب حالة الهذيان النفسي، ويتردد على المصحات العقلية، وفيما بعد يقيم في حي فقير شعبي.

كي يكرس وقته للرسم، وقد بدت شخصية جوجان هنا كمساعد لفان جوخ كي يستكمل مسيرته المؤلمة، وبالفعل فإن أنطوني كوين قد حصل على جائزة أحسن ممثل مساعد بينما لم يفز دوجلاس بجائزة أحسن ممثل وهو الذي كان يستحقها عن جدارة ما يعني أن الممثل أعطى لجوجان الحياة والحيوية بكافة معانيها.

وقد حاول النجمان الممثلان أن ينقلا الحياة التي عاشها الفنانان في الحياة، رجل قوي البنيان والموهبة، وفي مقابل صديق غير سليم

الإدراك للنفس، لكن قوته في أنامله وهو يرسم، كما أن الدراما يمكنها أن تجد في هذا النوع من الحياة ما يجذب الناس.

أما الفيلم الثاني "الذئب عند الباب" فقد تم إنتاجه عام ١٩٨٩ بين الدنمارك وفرنسا، وقام بدور بول جوجان الممثل البريطاني دونالد سوزرلاند من إخراج هاننج كارلسون، وهنا نرى رجلًا آخر في حياة الفنان التشكيلي إنه الكاتب المسرحي المعروف أوجست سترندبرج الذي جسده ماكس فون سيرو، إذا كان الفيلم السابق مأخوذ عن رواية كتبها نورمان كراوتين، فإن مخرج الفيلم الثاني قد كتب فيلم عن السيرة الحياتية للفنان التشكيلي، واشترك في الكتابة الروائي الفرنسي المشهور جان كلود كاريير، والفيلم في الأساس يحمل اسم

"Oviri"وهو واحد من أشهر التماثيل الخزفية التي نحتها جوجان، من السيراميك عام ١٨٩٤، وقد استوحاها من مرحلة تاهيتي، حيث أن "أوفيري" هو اسم شذ، حيث تاهيتي تعني "المتوحش" والموضوع هنا هو عن الموت والتوحش، وهو التمثال الذي تم عمل نسخة منه، ووصفه عند أعتاب مقبرة جوجان.

وتدور أحداث الفيلم عند مرحلة بعينها من حياة الفنان أسوة بالفيلم الأسبق حين يصل جوجان في عام ١٨٩٣إلي باريس لعرض لوحاته بعد إقامته في تاهيتي وفي العاصمة الفرنسية، فإنه يصاب بخيبة أمل، ويقابل الكاتب السويدي سترندبرج، كما يعرض الفيلم قصة الحب التي تربط بين جوجان وزوجته الدنماركية، التي يتخذ منها نموذجًا بالإضافة إلي

شابة في سن الرابعة عشر تُدعى جوديت، يتخذ منها نموذجًا يرسمه بعد أن اجتاز ما سُمي بالمرحلة التاهيتية، كما تحدث الفيلم أيضًا عن صداقة تكونت بين الفنان التشكيلي والكاتب والناقد الأدبي الدنمراكي كارل بر انز "١٨٤٧-١٩٣١."

من المهم الآن أن نتعرف على سيرة مختصرة لحياة الفنان التشكيلي، للتأكيد أنه رغم أن السينما قدمت فيلمين عن حياة جوجان، فإن السيرة الحياتية للفنان قد لا تكفي لعمل عدد كبير من الأفلام، وأن حياة الفنان كانت أكثر اتساعًا ودهشة من عالم السينما البالغ الخصوصية. هو أيوجين هنري بول جوجان، الرسام (٧/٦/ ١٨٤٨ – ١٩٠٣/٥/٨) المولود في فرنسا لأب يعمل في الصحافة فبالرغم أن الممثلين الذين جسدا دوره في السينما لم يكونا فرنسيين، إلا أنه كان فرنسيًا حتى النخاع، ثقافة، وسلوكًا، فأبوه صحفي بارز وأمه ابنه لأحد أبرز الطليعيين في الفكر الاشتراكي، كان يسافر من أجل نشر أفكاره ومات الأب وابنه لم يكمل العامين، وكان عليه أن يعيش مع أخيه في كنف عمه، شب الصغير وقد لفت انتباهه الطرز غير المألوفة للأزياء التي ترتديها أمه، وألوان متداخلة، مليئة بالزركشة وقد سافر معها إلي تاهيتي وأعجبته ملابس النساء أيضًا وهي التي ستطغى على أغلب لوحاته.

كانت اللغة الإسبانية التي تعلمها في بيرو هي لغته الأم، ثم صارت اللغة الفرنسية لغته الأساسية بعد أن عادت أمه إلى فرنسا، وتعلم في مدارس باريس، وظل فيما بعد مسافرًا لا يعرف الاستقرار فهو يعمل

أحيانًا بالبحرية الفرنسية، وفي أسواق الأوراق المالية ويتزوج من سيدة دنماركية، لم تكن من الشخصيات المحورية في الفيلم الفرنسي، ومن أجل أسرته انتقل إلى الإقامة بالدنمارك، فعمل بالتجارة ولم تظهر له أي بوادر كرسام في هذه الفترة، ولما انتهت علاقته بأسرته كثيرة العدد وانفصل عنهم، عاد إلى باريس وتعرف على فنانيها خاصة الانطباعيين منهم، وزار المعارض وتولدت صداقة مع بيسارو..

نعم، عن كل مرحلة من تلك المراحل يمكن عمل فيلم، كأننا أمام أشخاص يختلفون تمامًا عن بعضهم البعض مثل السنوات الأحد عشر التي أقامها في كوبنهاجن وأيضًا بداياته كفنان وكيف أتاح له بيسارو أن يدخل إلى عالم الفن والفنانين، وهو يجرب الانتقال من الثراء إلى الأخلاق والحاجة، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لرجل يعمل في أسواق المال.

فوسط اضطراب سوق اللوحات الفنية قرر التفرغ للرسم وطلب المساعدة من صديقه بيسارو كي يفعل ذلك، حدث ذلك في عام ١٨٨٥، وقد وقفت أخته إلى جواره تساعده، ولم يكن غزير الإنتاج، وعانى مع زملائه من قلة الإقبال على لوحات الانطباعيين، وعاش حياة مليئة بالتحدي، حيث كان يجد في رياضة الملاكمة متنفسًا واضحًا من أجل مواجهة ظروفه واستكمال مسيرته الفنية.

إذن، هي حياة مليئة بالمواقف الصعبة مثلما عاشها فنانون كثيرون، لكنه لم يكن بالرجل الذي تغلبه الظروف وكان يسعى إلي الوصول إلى أوطان أخرى، وأن يختار "المنظر" الذي يروقه ليرسم،

فوصل إلى إليابان، وجزر المارتيك، وتعمد أن يستخدم ألوان الطبيعة النقية في لوحاته، وأعجبته الفنون الشعبية في البلاد التي زارها فرسم البسطاء من الناس، والأنقى من الطبيعة، وساعده ذلك في التمرد على الأشكال التقليدية التي سارت لعدة أجيال..

نعم، يمكن للسينما أن تقدم أفلامًا كثيرة عن مراحل من حياة الفنان، مثل رحلته إلى جزر المارتيك عام ١٨٨٧، برفقة صديقه الفنان شارل لافال فهو رجل في حاجة إلى المال، وتعيش زوجته بعيدًا عنه، وهناك تعرَّف على طائفة من الهنود والمهاجرين ورسمهم في أكثر من لوحة.

وفي مرحلة لاحقة التقى فان جوخ، وشعر كل منهما كأن الآخر توأم فني له وقد تصاعدت العلاقة وتوترت لدرجة أن جوخ واجه صديقه بشفرة موسى، وذلك قبل أن يقطع جزءًا أو كلًا من أذنه اليسرى.

مسيرة حياة الفنان مليئة بالتفاصيل المدهشة لحياة فان، واعتقد أن الدنمارك يمكنها أن تعيد حساباتها مع الفنان وشخصياته الدنماريكة، فقد بدت زوجته "بيت جاد" في فيلم "أوفيري" أو "الذئب عند الباب" أقرب إلى الشخصية الثانوية قياسًا إلى شخصيات أخرى في حياته مثل: جوديت مولار، وزوجها ويليام، وهي المرأة التي لعبت دورًا في حياته أكثر من أوجست سترندبرج بالتأكيد.

فانسان جوخ..

الرجل الذي قطع أذنه

هو العنوان الأنسب لفيلم عن الفنان الهولندي فانسان فان خوخ، ورغم ذلك فإن هذا العنوان لم يخطر على بال كل الذين تتبعوا سيرة حياة الفنان في السينما الروائية والفنية، وأيضًا التسجيلية الطويلة،

فهو الشخص الأكثر إثارة في عالم الفن التشكيلي بما تركه وراءه من حكايات مرتبطة بسلوك هو أقرب إلى الجنون، وأيضًا لأن فنه كان نقطة فاصلة في مسيرة الفن التشكيلي، بالإضافة أن هناك في حياته مجموعة من الأشخاص صنعوا له مسيرته، وما كان له أن يكون الفنان الذي نعرفه بدون هؤلاء الأشخاص ومنهم أخوه تيو وبعض النساء، بالإضافة إلى صديقه الرسام بول جوجان الذي كان نقطة عابرة في حياته لكنها مهمة، كما أن فان جوخ صار أكثر الفنانين غزارة في الإنتاج وبيعت لوحاته بأرقام خيالية، خاصة بعد وفاته.

وما يهمنا هنا أنه الفنان الذي انتبهت إليه السينما الروائية بقوة فقدمت عنه ستة أفلام بالغة الأهمية منها:

"شهوة الحياة" من إخراج فانسنت مينيللي عام ١٩٥٦

"فانسان وتيو" وهو فيلم أمريكي عرض عام١٩٩٠

"فان جوخ" إنتاج فرنسا عام ١٩٩١ من إخراج موريس بيالا

"حياة وموت فانسان جوخ" إخراج الأسترالي بول كوسي عام ١٩٧٤

ولا شك أن الفيلم الأهم، والأكثر شهرة، هو الذي أخرجه مينيللي، ليس فقط لأنه حصل على جائزة الأوسكار لأحسن ممثل مساعد (أنتوني كوين)، أو لأن كيرك دوجلاس جسد بشكل عبقري دور جوخ، كما أن الفيلم فائز بجوائز أخرى تقنية، ولكن - حسب رأيي- لأن الفيلم مأخوذ عن رواية سيرة خاصة صاغها كاتب أمريكي هو إرفنج ستون عام ١٩٣٤

هذا الكاتب تخصص في كتابة روايات حول السير الخاصة للفنانين التشكيليين، وأيضًا مشاهير العصور، ومن بينها رواية "العذاب والمتعة" حول سيرة الفنان مايكل أنجلو باعتبار أن كتابة هذا النوع من الروايات شئ غير مألوف، وأنه من النادر أن نرى روايات حول هؤلاء الفنانين، وقد كتب إرفنج أيضًا روايات سيرة عن الكاتب الأمريكي جاك لندن صاحب رواية "الناب الأبيض"، وله كتب أخرى عن داروين، وألفريد نوبل، وفرويد.. تحول بعضها إلى أفلام ناجحة، ولذا فإننا أمام فيلم بعبق النص الأدبي، وقد توقف الكاتب في رواياته عند ما يسمى بلحظات الاستشراق عند الفنان، ولم يهمه كثيرًا كتابة سيرة حياة الفنان منذ الميلاد حتى الرحيل، وقد انعكس ذلك على أحداث الفيلم، وبمتابعة

كافة الأفلام التي قدمت عن فان جوخ سوف نرى أنها لم تتوقف سوى عند السنوات الأخيرة من حياته.

وهو الذي عاش عمرًا قصيرًا بين عامي١٨٥٣ و ١٨٩٠، وبالتالي فقد بدا أن سنوات التكوين الأولى، أو ما يمكن تسميتها بسنوات هولندا، وهي الفترة التي جرب فيها الفنان العديد من المهن من ناحية، كما انه انتقل من خلال أخيه بين عدة أوطان حتى استقر به الأمر في باريس، ولذا فإن فيلم مينيللي يبدأ، وقد بدا فان جوخ في عنفوانه مرتديًا جسد كيرك دوجلاس الرياضي الذي رأيناه في فترة قريبة يقوم بدور مصارع روماني، وفي الفيلم سنرى كيف تحول جوخ من رجل أنيق عاشق إلى شخص بائس، بعد أن رفضت امرأة إقامة علاقة حب معه، لكن امرأة أخرى أقل جمالًا عاشت معه، على مضض، وهو الأمر الذي كشف جنونه، وهنا تبدو سيرته السينمائية تتمتع بالجاذبية نفسها للوحاته، لكن من المهم أن نتعرف على أبرز النقاط في مسيرته الفنية، فقد ترك فانسان فان جوخ المدرسة وهو صبي، ولم يعد إليها قط.

وهو المولود في هولندا لأب يعمل قسًا أنجب العديد من الأبناء لعب أكثرهم أدوارًا في حياة أخيهم، خاصة تيو الذي كان يعمل في التجارة بالأعمال الفنية. وتوارث هذه المهنة من آبائه وأجداده لأجيال متلاحقة، فقد عمل عماه بهذه المهنة التي برع فيها فيما بعد أخوه الأصغر تيو، وكان على فان جوخ أن يحب اللوحات ويعرف قيمتها، وأن يبدأ في الرسم، ويصير له مهنة، وقد دفعه عمله هذا إلى الانتقال إلى فرع

الشركة في العاصمة البريطانية لندن، واستقر هناك بعض الوقت وهو شاب لم يكمل سن العشرين، وهناك عاش مع سيدة بريطانية، وأحب الأجواء الثقافية التي أدخلته فيها، ثم وقع في غرام ابنتها أيوجيني التي اصطحبته إلى متاحف لندن فاتسعت أفقه، والتقى بالأديبة المعروفة جورج إليوت، وأيضًا بالروائي تشارلز ديكنز.. ورغم أن الشركة نقلته إلى فرعها في باريس ألا أنه عاد إلى لندن التي أعجبه مناخها الثقافي، وهناك تولى تعليم الشباب فنون الرسم، ودرس الإنجيل جيدًا، وكاد أن يصبح كاهنًا مثل أبيه، وقام بإلقاء الخطب الدينية في الكنائس، وعاد إلى أمستردام ليستكمل دراسة علوم اللاهوت، لكنه لم يستمر في هذا أكثر من خمسة أشهر، بدا كأنه يبحث عن طريق فسار في دروب متعددة، وعقب فشله في الدخول إلى سلك اللاهوت عمل في المناجم وتعاطف مع العمال الذين أصبح واحدًا منهم، وقد رسمهم في العديد من لوحاته فيما بعد.

كان الجنون قد بدأ يتسرب إليه ببطء لا يكاد يعرف أي طريق يسلك، ما دفع أخوه تيو إلى مساعدته بمبلغ من المال كي يدرس الفن في بروكسل، كل هذه التفاصيل حول الفنان لم يتوقف فيلم "شهوة الحياة" عندها، وبدأ في مرحلة لاحقة حين تعرَّف فانسان على ابنة عمه كورنيليا بعد أن صارت أرملة تتولى أمرها وحدها، وقد حاول الشاب أن يقترب منها عاطفيًا فرفضته بقوة، ولذا فإن الفنان بدا هنا رجلًا أنيقًا كله حيوية، إلا أنه صدم بهذا الرفض، وساندها في ذلك أبوها، ألا وهو عمه، وفي الفيلم مشهد يعكس كبرياء المرأة وهي تردد: "أبدًا.. أبدًا"، وكان كل

رد فعله أن أمسك بلهيب الشموع حتى يتألم أكثر في جسده من ألم الروح الذي عرفه في الحب، ثم قرر فانسان أن يبدل بها امرأة أخرى تدعى موف ليس لها نفس الشموخ، لكنها دبت في روحه قدرات الفنان فملأ بيته في لاهاي بالكثير من لوحاته.

ويبدو أن تجربة ابنة العم لم تنتزع قط من قلبه فصادق بنات ليل ما أثر على علاقته بموف مثل علاقته بكلاريسا التي أتى بها لتعيش في بيته بلاهاي عام ١٨٨٢، وهي حامل من رجل آخر في الشهر الثاني، وبعد فترة قصيرة ترك كلاسينا، وقرر أن يعيش حياة البوهيمية، واهتم بحياة الفلاحين الفقراء، وذهب إليهم في المزارع يرسمهم ويعكس عالمهم في لوحاته كثيرة العدد، ومن بين هذه اللوحات "آكلو البطاطس" التي وضعته في مصاف كبار فناني عصره.

هذا التحول دفع أخاه تيو أن يقترح عليه القدوم إلى باريس ويعيش فيها، فالتقى بأبرز الانطباعيين وصادقهم، وتأثر بهم، وعلى رأسهم رينوار، وبيسارو، وبدت لوحاته أكثر حيوية، خاصة حين تأثر بالفن الياباني الذي يقدس الطبيعة، وفي عام ١٨٨٨ انتقل إلى الريف الفرنسي في آرك وامتزج أكثر بالطبيعة، ومن بين لوحاته التي رسمها "منظر طبيعي لطريق وأشجار مشذبة" و"لوحات البساتين المثمرة"، وقد أحس بالتجدد وسط الطبيعة، وأحب التحولات المناخية خلال الفصول الأربعة خاصة الربيع والخريف، وفي العام نفسه التقى بالفنان بول جوجان، فدعاه للإقامة عنده، وأعجب كثيرًا بلوحاته وأسلوبه، لدرجة كأن اللوحات

التي رسمها الاثنان صارت متشابهة، كانا يحبان نفس المناخ والمناظر، وهي الفترة التي ركز الفيلم عليها، وقد جسد أنتوني كوين شخصية جوجان بكل توحشها وتوهجها، ونال جائزة أوسكار عن هذا التجسيد، وما لبثت العلاقة أن تدهورت بين جوجان وصديقه بسبب البرد القارس في الشتاء، والظلام الذي يسيطر على المكان في ساعات النهار الشتوية، كانت المناظر تختلف في الأيام الصحوة عن أيام الطقس المظلم، وما لبث جوجان أن غادر آرل متجها إلى باريس، ثم إلى أماكن أكثر إشراقًا، ولعل مثل هذه الأجواء تزيد من حدة الضغط النفسي على الرسام، خاصة فانسان، ما أصابه بنوبة جنون قطع على أثرها أذنه في موقف درامي بالغ القسوة بواسطة شفرة موسى حلاقة وقد ركز الفنان على هذه الحادثة باعتبارها المشهد الأكثر تأثيرًا في حياته، ورأينا وجه الفنان، وقد امتلأ بالدم والانزعاج بسبب ما اقترفه في حق أذنه، أما جوجان فقد غادر إلى باريس دون أن يخبر صديقه بالأمر، إلا أنه شرح ما حدث عن ذلك بالتفصيل إلى الأخ تيو، فيما بعد.. إنها فترة الخصوبة الكبرى في إنتاج المزيد من اللوحات، فصار أكثر اكتئابًا، واحتاج إلى عناية شديدة للعلاج، وأيضًا إلى أموال كثيرة، وفي تلك الفترة رسم لوحته الشهيرة "عبَّاد الشمس" وبدأ أهل آرل يشكون من سلوكه، وأحسوا أنه لم يعد مرغوبًا في وجوده بينهم، وصار يتردد بكثرة على المستشفى لا يكاد يخرج منها إلا من أجل أن يرسم، ورسم أغلب معالم الريف في آرل من بساتين وبنايات، وحقول، وأحس أن المرض يحرمه من الرسم فزاد شعوره بالإحباط، وضغط عليه أخوه تيو أن يعود إلى باريس، إلا أنه لم يحتمل

البقاء بها، وأقام في غرفة صغيرة رسم كل معالمها في لوحاته الأخيرة، وقد تأرجح بين الرسم والألم، فأطلق الرصاص على رأسه في السابع والعشرين من يوليو عام ١٨٩٠، ومات في فراشه بعد يومين، وقد عبر دوجلاس عن هذه المعاناة بكل مهارة وبدا كأنه تقمص فان جوخ فأشعرنا به وبآلامه.

دفن فان جوخ في باريس، ولحق به أخوه بعد ستة أشهر.

وبمشاهدة النهايات في ستة أفلام عن كيف أطلق فان جوخ الرصاص على نفسه فسوف نلاحظ أن هناك ست نهايات متباينة تمامًا، ما يعني أن كل مخرج له رؤيته الخاصة في تنفيذ الأحداث، ففي فيلم مينيللي بدا جوخ مليئًا بالحيوية حتى آخر لحظة، ليس به ما يكشف عن أي كآبة، بل هو يتحرك بحيوية، ويترك لوحته غير المكتملة، وسط حقول القمح ثم يخرج مسدسه بعد أن ابتعد، ويطلق الرصاص على بطنه، وفي فيلم آخر، فان جوخ يطلق الرصاص على رأسه من مسدس أيضًا وسط الحقول. وفي فيلم "فانسانوتيو" يطلق الفنان الرصاص على بطنه من بندقية. أما النهاية الغريبة فهي أن الفنان أطلق الرصاص على رأسه داخل حنجرته

وقد كسا كيرك دوجلاس الشخصية بحيوية ملحوظة، ورمى عن الفنان كل ما قرأناه أن الرجل كان مكتئبًا، هو جنون فردي دفعه إلى الانتحار وهو في قمة عطائه، والحق أن دوجلاس ظلم مرتين في شأن عدم حصوله على الأوسكار، ففي هذه السنة ١٩٥٦ ذهبت الجائزة إلى يول براينر عن دوره في فيلم "أنا والملك"، وكان يستحقها، وفي عام ١٩٦١

راحت الأوسكار إلى بيرت لانكستر عن دوره في فيلم "المر جانتري"، ولم يحصل عليها دوجلاس عن "سبارتاكوس".

الفيلم الثاني المهم أخرجه الفرنسي موريس بيالا الذي فاز ممثله جاك ديترون بجائزة أحسن ممثل في جائزة سيزار عام ١٩٩١، وهو يحكي عن الشهرين الأخيرين في حياة جوخ، أو بالأحرى الأيام الـ٦٧ الأخيرة وهو فيلم خيالي ليست فيه قصة واقعية عاشها الفنان، وفي الفيلم نزل فان جوخ إلى آرل بناء على نصيحة طبيبه جاشيه، وهناك وقعت مرجريت ابنة الطبيب في غرامه، وعاش في حالة انتعاش فني، علمًا أن شخصية جاشيه كانت إحدى الشخصيات الرئيسة في فيلم مينيللي، وقد جاء إلى المصحة التي امتلكها جاشيه الأخ تيو وزوجته، بما يعني أن حياة فان جوخ تصلح لعمل أفلام ليس لها عدد، وأن الرجل سيظل نبعا للعديد من القصص الفيلمية.

جاكسون بولوك..

سنوات الحب والخمر

يقولون أنه أول من سعى للعودة إلى التعبيرية الجديدة التي انطلقت من الولايات المتحدة في الأربعينيات من القرن الماضي، وهي الفترة التي امتلأت حياته بالنشاط المهني، والمتاعب العائلية وإدمان الخمور، وهو السبب الرئيس الذي جعله يدفع حياته في حادث سيارة مأساوي في أغسطس عام ١٩٥٦وهكذا صارت حياة بول جاكسون بولوك مادة شديدة الخصوبة لعمل فيلم روائي يحمل اسم الفنان "بولوك"

بدا فيه الممثل إيد هاريس مندمجًا بقوة داخل حياة ومسيرة، وفن "بولوك" خاصة أن هاريس هو أيضًا فنان تشكيلي قام في الفيلم برسم العديد من اللوحات بدا فيها متأثرًا كثيرًا بأسلوب بولوك "ايد هاريس" ممثل صار مخرجًا لأفلام أمريكية .

كما أنه منتج وكاتب سيناريو، غزير الإنتاج بشكل ملحوظ، وفي قائمة أعماله قد نراه من أكثر الممثلين الأمريكيين الذين تم ترشيحهم للحصول على جائزة أحسن ممثل، أو الفوز بها، بما يعلي مكانته وأهميته، فهو الفائز بجائزة أحسن ممثل مساعدعام ١٩٩٩ عن فيلم "ترومان شو"، كما أنه صاحب الأدوار البارزة في أفلام منها: "الأعماق" إخراج جيمس

كاميرون ١٩٨٩، و"عقل جميل" ١٩٩٧، وأيضًا فيلم "الصخرة" أمام شون كونري، ونيكولاس كيدج.

ومن المعروف أن السينما الأمريكية التي تهافتت على عمل أفلام سينما حول حياة وإبداع الفنانين التشكيليين الأوربيين، فإنها نادرا ما أقبلت على عمل فيلم روائي حول فنان أمريكي ومنهم أندريه وارول، لكن حياة بولوك كان فيها من الإثارة والدهشة ما جعل هاريس يقبل على إخراج هذا الفيلم والدفع به إلى النور.

هاريس المولود في العام ١٩٥٠، اختار أن تبدأ أحداث الفيلم في عام ١٩٥٠، وهي السنة التي ولد فيها، كما إنها الفترة التي تألقت رسوم بولوك على صفحات مجلة لايف أسبوعيًا، أي أن الرسام كان أقرب إلى المسيرة الفنية لمصطفى حسين في مصر، فهو يرسم في المجلة، وله لوحات تأثيرية صارت لها صفة الجماهيرية في الصحافة مع الأخذ في الاعتبار اختلاف المدرستين، ثم أعاد السيناريو الأحداث إلى ما قبل تسع سنوات، إلى عام ١٩٤١ سنة الخصوبة في حياة الفنان، وكأنه يقول أنه عاش في زمن بولوك، وهاريس هو الذي حصل على السيرة الذاتية للفنان التشكيلي، كما أنه احتفظ بها لمدة عشر سنوات قبل أن يدفع بالكتاب الفائز بجائزة بوليتزر، الذي يحتوي هذه السيرة تحت اسم "حكاية أمريكية" كتبه ستيفن نايف، إلى كاتبة السيناريو باربارا تيرنر سوزان وزميلتها سوزانا يمتسويلر لتحويل المذكرات إلى سيناريو يجسد فيه

هاريس دور الفنان، ويقوم بإخراجه كما نعرف فإن في كل فيلم عن حياة فنان تشكيلي مرحلة بعينها يتوقف المخرج عندها..

وتبدو كأنها توجز حياة الفنان الشخصية والمهنية ففي العام ١٩٤١ كان جاكسون بولوك قد بلغ سن التاسعة والعشرين، شاب في مقتبل العمر يعاني من الفشل والاخفاق المتوالي، لا يكاد يعرف طريقه، فهو لم يدرس، وإنما يرسم بالفطرة، ليس له مدرسة بعينها، ولا يكاد أحد يعرف له أسلوبًا، وفي تلك الفترة كان قد صار كحوليًا بمعنى الكلمة، لا يكاد يتوقف عن الشراب، تدخل في حياته امرأة تقرر أن تغير له حياته وتحوله من شاب ضائع إلى فنان معروف يتابعه الناس في المعارض والصحف، والفيلم بمثابة رحلة طوال سنوات الأربعينيات، ليس في حياة الفنان الشاب سوى أخيه تشارلز بولوك المعروف باسم ساندس، الذي أسكنه معه في شقته الضيقة البسيطة بأحد أحياء نيويورك، لقد تولى أخوه أمره، وقرر أن يأخذه إلى كل مكان يعيش به مهما كان ضيقًا عليهما، رغم أن جاكسون لديه العديد من العلاقات النسائية ، ويحدث أن يحصل ساندس علي وظيفة أفضل في إحدى شركات تصنيع الطائرات في كونتكت، وهي شركة كانت تقوم بإنتاج قطع الغيار للطائرات العسكرية أثناء الحرب العالمية الثانية، ويصبح علي الشاب الرسام أن يذهب بصحبة أخيه فليس في حياته من يعتني به، والنساء في حياته عابرات، ورغم أن جاكسون لم يكن يجد من يشتري لوحاته، أو يوافق على عمل معرض لرسومه، فإن الرحيل عن نيويورك كان يشكل له غصة، إلا أنه في ليلة الرحيل زاره صديقان قديمان هما: روبن، وهيوارد

بوتزل؛ ليبلغاه أهما يعملان في مؤسسة رجل الأعمال بيجي بوهام، الذي أنشأ جامعة تقنية باسمه، ويعرف جاكسون أن عقدا ينتظره للعمل في هذه الجامعة بمبلغ إجمالي٢٤٠٠ دولارًا مقابل رسم تصميمات ولوحات علمية.

وقّع الفنان العقد، وأقنع أخاه بالسفر إلى كونتكت، وبقي هو في نيويورك يحدوه الأمل، وتعرف على الفنانة "لي" التي قررت أن تدخل حياته راضية، فلا يزال الجمهور لا يحس بقيمة لوحاته، كما أن صديقه هيوارد يموت في ليلة رأس السنة، وكان سوء الحظ سببًا في أن يعود جاكسون إلى الشراب، ويقلع عنه مرات عديدة، ورغم قوة علاقته مع الفتاة وأيضًا صديقه بيجي فقد رأى الطريق مسدودًا أمامه، وفي لحظة تنوير قرر أن يغيِّر مصيره بأن يتزوج من فتاته التي أصرت على أن يواصل الرسم.. كما قرر أن يغير من المكان الذي يعيش فيه، ولم يذهب إلى كونتكت حيث يوجد أخوه ساندس بل سافر مع زوجته إلى الريف في لونج أيلاند قريبًا من نيويورك، وقررت زوجته أن تتبنى كلبا لتربيته، وأخبرته إنها لن تنجب منه إلا بعد أن تتحسن ظروفهما المالية، حيث الحال لم يتحسن قط، فاللوحات لا تُباع، والمطالب الحياتية كثيرة، ورغم أن الناقد التشكيلي كليمنت جرينبرج قد امتدح أعماله فإن الأمر لم يتحسن إلا بعد أن عرضت عليه مجلة "لايف" أن يرسم في صفحاتها، وبدأ اسمه يبزغ في الرسوم الصحفية، وكانت امرأته له بالمرصاد لا تكاد تتركه، وتشعر بالغيرة الشديدة عليه، لدرجة أنها طردت إحدى المعجبات به حين عانقها في أحد معارضه، ولم يكن عمله في المجلة يكفيه من حيث

سد احتياجاته المالية، ولم تعارض "لي" في أن يجرب زوجها العمل بمشروع تجاري، إنها سنوات الفقر والخمر، وقد أخفى بولوك دومًا أموره المالية عن أخيه حتى لا يكون عبئًا عليه وفي لحظة حاسمة قرر التخلي عن الشراب، وكان ذلك أسعد قرار بالنسبة للزوجة، وعاد الفنان مرة أخرى إلى "ريف" ليرسم.

يعود الفيلم مجددًا إلى عام ١٩٥٠، وهنا يبدو كأنه وجد أسلوبه الجديد، إنه يبحث عن صورة مستقبلية للوحة، وقد وجد ذلك هوى المتابعين للمجلة، ورغم أن الأمور صارت أفضل فإن الحزن سيطر عليه لأن الزوجة لا تزال مصرة أنها لن تنجب إلا إذا توافرت للوليد حياة كريمة، ورغم حبها الشديد له فإن "لي" طلبت منه الطلاق عقب أن تأكدت من وجود امرأة أخرى في حياته اسمها روث، وأمام شعور جديد بالضياع يصادق الفنان الفتاة آديت صديقة روث، وتستمر حياته في حالة تأرجح حتى تسقط به سيارته في منطقة جبلية، وهو شديد السكر وفي صحبته آديث.

إنها الفترة التي مات فيها الممثل جيمس دين في ظروف مشابهة، وفي سن مقارب، ما حوَّل كل منهما إلى أسطورة في مجاله، فبعد فترة قصيرة من وفاة جاكسون بولوك بسبب تهوره كسائق مخمور أقام له متحف الفن الحديث بنيويورك تمثالًا باعتباره واحدًا من أبرز الفنانين الأمريكيين في هذه المرحلة.

كما نرى فإن السينما تجاهلت فترات بالغة الأهمية بالنسبة لحياة بولوك، وتوقفت عند فترة الحب الكبير بين لي كراستر، وبولوك، وهي فترة بالغة الأهمية توحدت فيه المرأة، وهي أيضًا فنانة تشكيلية مع الرجل الذي أحبت وقد جمع الاثنان حب الفن والأساتذة الذين تركوا الأثر في كل منهما، وقبل أن تتزوج منه عام ١٩٤٥، وتذهب للعيش معه في البيوت الفقيرة تعاني من الحرمان، ومن إدمانه وعوزه، فلا تشكو أبدًا، وتظل إلى جواره، وبعد عام ١٩٥٠. بدا كأنه يرد لها الجميل، وقد تيسرت أموره فراح يدفعها إلى الحمل منه وهو الشخص المتذبذب بين السكر والامتناع عن شرب الخمور، فما إن تحسنت أحواله حتى بدأ يضغط عليها كي تنجب له الطفل، وتعددت علاقاته مع نساء أخريات، ومات في نفس السيارة مع واحدة منهن، خاصة أن لي كراستر ظلت مخلصة له طوال حياته فسعت إلى تخليده بإنشاء متحف الفن الحديث الأمريكي الذي ضم كل أعماله، وهي التي بنت له ولها من بعد رحيلها مقبرة جمعت بينهما للأبد.

والفيلم أيضًا تجاهل مرحلة التكوين بالنسبة للفنان الذي بدأ حياته كفنان في فترة مبكرة، فلم يستكمل تعليمه الأساسي، لكنه تابع الحركات الفنية في أوروبا، وبدا معجبًا كثيرًا ببابلو بيكاسو، وتأثر بلوحتي "جرنيكا" و"نساء آفينيون"، وكان تلميذًا مخلصًا في تلك المدرسة وأعجب بالشغل البدائي لبيكاسو وعدد من الفنانين منهم خوان ميرو، كما أن الفيلم تجاهل تمامًا تأثره بعدد من الفنانين من الهنود الحمر، الذين يرسمون البدائية على السجية ورسموا ما يناسب الطفولة الإنسانية، ولم

يشر الفيلم أن علاقة بولوك بالخمر بدأت عام ١٩٢٧ أي وهو دون سن العشرين، وذلك قبل أن يترك المدرسة للأبد، ويلتحق بمدرسة الفن اليدوي التي درس بها أيضًا أخوه تشارلز المعروف باسم ساندرز.

في هذه المرحلة في أواخر الثلاثينيات رسم أشهر لوحاته على الجدران وفيما يعرف باللوحات الجدرانية، ومن المعروف أنه لم يرسم على القماش إلا في مرحلة متأخرة، ومن بين لوحاته الجدرانية ما حاول به أن يقلد مايكل أنجلو، فرسم على الجدار ما رسمه أنجلو تحت سقف كنيسة سيستين.

أما مرحلة الازدهار فقد بدأت بعد عام ١٩٥٠، واشترك بأعماله عن طريق زوجته في بينالي فينسيا، وقام برسم لوحته "وجه وحلم" عام ١٩٥١ على القماش.

وراح يعبر عن نفسه قائلا:"عندما أكون في أعماق لوحة فإنني لا أعي شيئًا عن نفسي، ماذا أفعل، وبعد بعض الوقت أبدأ في استرجاع هوية ما رسمت، ولا أجرؤ على عمل تعديلات حتى لا أدمر اللوحة، لأن كل لوحة حياة قائمة بذاتها، إذ إنها تعلن عن نفسها، هناك ايقاع كلي وتبادل سهل، وهذا سبب لنجاح اللوحة."

هذه اللوحات صارت مع الزمن هي الأغلى بالنسبة للفنان التشكيلي الأمريكي.

كما أن هذه اللوحات تحوَّلت إلى كائنات حية في العديد من الأفلام زمنها فيلم "جرس المجرة" إنتاج عام ٢٠١٤، ومن المهم الإشارة أن بولوك ترك وراءه الكثير من التراث الثمين ، ومنها اللوحة التي استجمع فيها كل حيوانات الغرب إلى رسمها عام١٩٤٧، وأيضًا لوحات منها: اثنان – المفتاح – العمق – عيد القيامة والطوطم، ولوحة باسم البحث، هذه اللوحات المرسومة حسبما يقول أحد النقادمرسومة بواسطة تنقيط ورش الأصباغ على لوح جنفاص كبير.

وقد تحولت حياة الفنان إلى مسرحية استعراضية في نيويورك قامت ببطولتها باربارا ستريساند أمام آل باتشينو بعد أن فشل مشروع لعمل مسرحية أخرى كانت ستقوم ببطولتها نفس المطربة أمام روبرت دي نيرو.

ومن الواضح أن الممثلات اللاتي جسَّدن الدور قد دبت فيهن روح "لي كراستر" العاشقة الملهمة لذا فإن الممثلة مارسيا جاي هاردوت، التي جسدت الدور حصلت علي الأوسكار كأفضل ممثلة مساعدة بسهولة عام ٢٠٠٠.

جوستاف كليمت..

صار على الشاشة شخصًا آخر

عندما بدأت كتابة هدا النوع من المقالات حول الفنانين التشكيليين في السينما، فإنني تصورت أن الأمر لن يتجاوز عددًا قليلًا من المقالات، وأن العدد سوف ينضب فيما بعد، لكن الاكتشاف الغريب أن السينما في كل أنحاء العالم قد أولت الفنانين التشكيليين المزيد من الاهتمام، ربما أكثر من أي مهنة أخرى عدا السينمائيين أنفسهم، ففي حياة الفنان التشكيلي المزيد من الصراعات والبحث عن التجديد والإضافات،

وأيضًا الصراع مع المرض والفقر والاختلاط بالسياسة، والموت المبكر، والتعرف على كافة أنواع النساء بما لهن من مكانات اجتماعية عإلية أو متدنية، وعلاقة الفنان بالنسوة يرسمهن ويعشقهن، ويلفظهن، ويُفتن بأجسادهن، فيرسمها كي تبقى بالغة النضارة طوال العقود.

وقد أتاحت لي مواقع "اليوتيوب" مشاهدة الأفلام العديدة الروائية والتسجيلية عن الفنان بما يتيح فرص التعرف الأعمق على رحلة الفنان جوستاف كليمت الفنان النمساوي، هو واحد من فناني القرن العشرين الذين يمكنك أن تشاهد عنهم العديد من الأفلام الوثائقية

المهمة، بالإضافة إلى الفيلم الرائع الذي أخرجه المخرج المشهور راؤول رويز. فيلم إنتاج نمساوي فرنسي، الأمرهو أشبه بالفيلم الحلم المزدحم بالتجريب باسم الفنان، واستعان فيه بالممثل الأمريكي المشهور مالكو مالكوفيتش ليقدم وجه كليمت، بطريقته الخاصة ربما أبعد ما يكون عن ملامح الرسام نفسه التي نراها في المراجع، والغريب أن المخرج جعل الرسام في الكثير من مشاهد الفليم يرتدي زي نهاية القرن العشرين وليس بدايته وهي الفترة الأكثرخصوبة في حياة الفنان التي توقف عندها دون غيرها.

وبالبحث عن كليمت في السينما فقد وجدت الكثير من الأفلام الوثائقية الطويلة التي تم إنتاجها عن الفنان، لكننا سوف نتوقف عند الفيلم الروائي، فالفيلم مأخوذ عن رواية بريطانية للكاتب "جيلبرت أدير" والفيلم كما أشرنا تمتزج فيه الأزمنة بالشخصيات بالمواقف، تتداخل اللوحات التي رسمها جوستاف كليمت بشخصيات تعرَّف عليها منهم النساء وفنانين تشكيليين عاشوا معه في تلك السنوات، هو فنان لا منتمي ارتبط في حياته بعلاقات مع نساء رسمهن، وكن في الغالب امرأتين، الأولى ذات شعر أحمر شاهدناها في أغلب لوحاته هي إميلي فلوج، والثانية كانت موجودة أيضًا اسمها ليا، وقد بدا الرسام في الفيلم عابثًا لاهيًا، يعيش بلا أي ارتباط أو انتماء، ولذا فإن السيرة الذاتية للفنان هنا ليست كما كانت، بل هي من صنع كاتب الرواية، وأيضًا كاتب السيناريو، وهو أيضًا المخرج الذي اهتم بعلاقة الفنان بالحياة ثم صوره مريضًا في أواخر حياته وهو مشرف على الستين ولذا فالفيلم بمثابة

مجموعة من الشرائح، فمثلا فإن هناك مشهد يهتم فيه كليمت بتأمل غوريلا في المتحف، ويحاول قياس أبعادها كمحاولة لرسم شئ مختلف عما رسمه أقرانه التشكيليين.

أما المخرج فهو تشيللي الأصل، حيث ولد في بيونس آيرس عام ١٩٤١، وقد أقام أغلب حياته في فرنسا، وهو مخرج طليعي تجريبي مؤمن بالمدارس الفنية التي غيَّرت من مفاهيم البشر منذ مائة عام وأكثر، فهو يختلف عن السينمائيين الآخرين التقليديين الذين صنعوا أفلاما عن التشكيليين التجريبيين بأسلوب تقليدي، وقد رأى راؤول رويز، جوستاف كليمت، فنانه، على طريقته الخاصة ومزج رؤيته على أنه قدم الفنان برؤيته الشخصية تسعين بالمائة تقريبًا، على أن كليمت عاش في القرنين التاسع عشر والعشرين بملابس زماننا الذي نعيش فيه، فليست هناك أي إشارة إلى ان ما نراه يعود إلى التاريخ، والفترة التي اختارها السيناريو وهي منذ بداية القرن العشرين حتى وفاة كليمت في عام ١٩١٨، هي الأكثر خصوبة.

فكليمت جرَّب الكثير من "الشغل" الفني من رسم وكانفاه وديكورات والرسم علي الكارتون وغيرها من المواهب التي اجتمعت لرجل واحد، وقد برع في رسم العاريات، والبورتريه بالإضافة إلى التذويق، والموزاييك، والسيراميك، كما أنه رجل عشق النساء كثيرًا وذاق طعم قبلاتهن كثيرًا، فكان أفضل من رسم القبلة الإنسانية بين الرجل والمرأة ، ولذا فإن المخرج اهتم بدور المرايا في حياة كليمت

وبالاضافة إلى الازدواجية، ولا شك أن كليمت الذي في الفيلم يختلف كثيرًا عن مثيله في الحياة أو في مخيلة من عرفوه أو لم يعرفوه.

يعني أننا رأينا كليمت فقط بعين رويز حتى ولو كان هناك نص روائي تم الرجوع إليه .

على سبيل المثال ذلك المشهد الغريب الذي يقوم فيه الفنان بتقبيل حبيبته إميلي والتي تغريه أن يقبلها ويرسمها بينما امرأة أخرى هي ليا ومعها زميل لها يشاهدان ما يحدث من غرفة مجاورة، حتى إذا انتهى الحدث دخلت إميلي إلى الغرفة التي خرجت منها ليا كي تكرر مع الفنان ما فعلته زميلتها بنفس الكلام والتذوق، وكأن ما يتكرر هو صورة طبق الأصل في المرآة، نحن أمام فنان عاشق للحياة والرسم والنساء، عاش ستين عامًا منهم ثمان عشرة سنة من القرن الماضي، منها سنوات الحرب العظمى التي بدت هنا كأنما النمسا لم تكن أرض اندلاعها، فالفنان خارج الزمن والحرب، هو متلصص، تحوِّطه النساء في مرسمه ومخيلته وداخل لوحاته ومسكنه.. هو رجل معجون بالتخيل، وقد حاول المخرج تحريك لوحات الفنان وجعلها صورة سينمائية تجريبية من أجل أن يشاهدها كل منا على طريقته، وكان هذا هو هدف التجريبيين دومًا.

وفي المشهد الأخير من الفيلم فإن الفنان المريض في المستشفى راقد في فيينا بداء الرئة الذي قضى على الكثيرين من الفنانين في العالم، وإلى جواره زميلة الرسام التجريبي إيجور شايلي الأقرب إلى مدرسته، والذي كان تلميذًا نجيبًا له، في هذا المشهد يحاول المخرج استعادة أهم

مشاهد حياته وعلاقاته مع إميلي فلويج وبنساء أخريات مثل ليا دو كاسترو، وراقصة نمساوية استعان بها المخرج جورج ميليه في أفلامه، كما كانت نموذجًا يرسم منه الوجه الحقيقي لكليمت بالتقريب ليس موجودًا في الفيلم، فنحن لا نكاد نعرف شيئًا عن الطفل أو الشاب الذي ولد في قرية قريبا من فيينا. كان أبوه جواهرجيًا، ومن هنا جاء حبه لتشكيل المعادن، وقد بدأ حياته في أعمال الديكور، وشارك اثنين من الزملاء الشباب في عمل ديكور متحف فيينا عام ١٨٧٩، أي وهو في سن السابعة عشر، وفي سن الحادية والعشرين انتبذ كل ماهو تقليدي وابتدع ما يسمى بالكلاسيكية الجديدة، وصار يميل إلى كل ما هو تجديدي، فكانت مكافأته الحصول على جوائز كثيرة استلمها مباشرة من الإمبراطور فرانسوا يوسف.

في عام ١٨٩٠ التقى بحبيبته إميلي فلوج وقاطع كل ما يخص الأساليب الأكاديمية الذائعة، واشتهر بلوحته عن مدينة فيينا، وهي اللوحة التي صارت شعار معرض فيينا للفن الحديث، ومع أوائل القرن اهتم بالفلسفة ورسم لوحة بهذا العنوان، وصمم المبنى الرئيس لجامعة فيينا وفيما بعد بدأت النسب والمناظير تتغير تماما في لوحاته، فالرأس شبع مقطوعة لا تظهر في اللوحة، وهناك تطويل ملحوظ في الاجساد التي تبدو أطول من المعتاد، وكأنها أمام مرايات محدبة أو مقعرة، وفي لوحاته تغيرت صورة المرأة الجميلة إلى امرأة قدرية ذات عينين باردتين مظلمتين، وصار الناس في معارضه المتلاحقة يشاهدون كل ما هو غير متوقع، وهو يرسم القبلة، والموسيقار بيتهوفن بسحنة مغايرة، ولوحة عن الانتظار، وكان

العام ١٩٠٧ هو نهاية مرحلة كي يبدأ في عام ١٩١٣ الاهتمام بالبورتريه، وقد سُميت هذه الفترة بالإيروتيكية، وشارك في بينيالي فينسيا، وترك وراءه حين رحل ٢٣٠ لوحة، منهم أربع وخمسين لوحة تصور الطبيعة، وقد اتجه إلى تصميم أزياء لشخصيات مشهورة من أدب الرعب ومنها دراكيولا، وهو التصميم الذي استعان به فرانسيس فورد كوبولا في فيلمه عن "دراكيولا" عام ١٩٩٢ في الفيلم الذي نتحدث عنه اليوم فإن اسم راوؤل رويز قد امتزج بقوة بكليمت فصارا اسمًا واحدًا، وقد توحد المخرج مع الفنان فقدم واحدًا من أفلامه المهمة وهو في الأساس صاحب عطاء سينمائي خصب، فهو أيضًا مخرج كثير الإنتاج قدَّم مائة فيلمًا بين الأرجنتين وفرنسا ودول أخرى، هو مخرج حاضر دومًا في المهرجانات حيث عمل منذ عام ١٩٦٩ في المسرح والتلفزيون والسينما، وقيل عنه أنه ساحر الفيلم التجريبي، ففي العام المذكور حصل على جائزة كبرى في مهرجان لوكارنو عن فيلم انطباعي يحمل عنوان "ثلاثة نمور حزينة" والفيلم مثل بقية أفلام المخرج يخلو من وجود أي قصة تقليدية يتبعها المشاهد، فالمخرج دوما ضد القصة، وقد بدا ذلك واضحًا في فيلمه عن "كليمت"، والجدير بالذكر أن رويز لا يمثل حالة فردية في هذا الشأن فهناك أسماء أخرى مشهورة قادمة من أمريكا اللاتينية منهم "ميجيل ليتين" موجود دومًا في المهرجانات السينمائية

أما رويز فقد أشرنا إلى انه أخرج قرابة مائة فيلم روائي، ومن أشهر أفلامه الفرنسية "فوق قمة الحوت" ١٩٧٩ و"ثلاثة تيجان لبحار"، و"مدينة القراصنة" عام ١٩٨٣، وقد فاز بالجوائز الكبرى في مهرجانات

برلين وفينسيا، والذي تحمس لتقديم الرواية التجريبية "الزمن المستعاد" لمارسيل بروست، وقد عملت في أفلامه ممثلات شهيرات مثل كاترينديدينيف، وايزابيل أوبير، وفي أفلامه التي أخرجها قبل وفاته،٢٠١١، وكان آخرها "أسرار ليشبونة"، فإنه كان يخلط بين فنون عديدة منها المسرح والفن التشكيلي والفيديو والسينما، يا له من تلاقٍ غريب .

مايكل أنـجلو..

العذاب والمتعة

الفنان في مواجهة رجل الدين.. هما في حالة جدل دائم الأول يعبرعن العالم وما به من تغيرات ويحاول اعادة تشكيله حسبما يرى، أما رجل الدين فإنه يتصرف دومًا على أساس أنه حارس أمين لما في الكتب المقدسة سواء السماوي منها أم الأرضي، وسوف يظل الطرفان في جدل، قد يسعى أحدهما للاستفادة من مكانة الآخر وثقافته، وقد تتحول المواجهة إلى مصلحة الطرفين معًا، فالأشكال تتعدد، والحياة في صيرورة أبدية لكن ترى هل هناك مسافة ما بين الاثنين.

هذا هو ما حاول الكاتب الأمريكي إرفنج ستون أن يؤكده في روايته "العذاب والمتعة" التي نشرها عام ١٩٦٢، وأثارت الكثير من النقاش، وسرعان ما تحولت إلى فيلم سينمائي هو أيضًا محل الجدل حتى الآن رغم مرور نصف قرن على إنتاجه بالاسم نفسه من إخراج كارول ريد، والجدير بالذكر أن إرفنج ستون كروائي ليس بعيدًا عن عالم الفن التشكيلي، فهو صاحب رواية "شهوة الحياة" حول السيرة الذاتية لحياة فانسان جوخ، وهي المنشورة عام ١٩٣٤، وتحولت إلى فيلم سينمائي أمريكي عام ١٩٥٧، وقد سبق لنا الحديث عنه.

"العذاب والمتعة" فيلم تاريخي في المقام الأول حول الظروف الاجتماعية والسياسية والدينية التي شهدها بداية القرن السادس عشر بين البابا جوليوس الثاني والفنان مايكل أنجلو بوناروتي، الذي رسم سقف كنيسة سيستين في ظروف مليئة بأجواء الجدل الساخن الأقرب إلى مرحلة فاصلة، ليس فقط في تاريخ علاقة الفنان بما يراه ويرسمه بل إن البابا الذي اعترض على الرسوم، ووقف ضدها واتهمها بالخروج عن المألوف، وما تقوله العقيدة ليست من وجهة نظره، بل من منظور النص المقدس.

الفيلم تم عرضه عام ١٩٦٥، من بطولة شارلتون هيستون في دور مايكل أنجلو، وركس هاريسون في دور البابا، ولا شك أن اختيار الرجلين للدورين له معانيه، فربما أن مايكل أنجلو نفسه لم يكن بالرجل العملاق جسمانيًا، لكن المخرج كارول ريد أراد أن يمنح الرسام مهابة خاصة، ليس فقط وهو يرقد فوق ألواح خشبية لرسم السقف لمدة طويلة من الزمن، بل أيضًا لأن الرجل المهيب كثيرًا ما يكسب القضية التي يؤمن بها الكثير من المصداقية، وعليه فإن السينما العالمية طوال تاريخها لن تجد ممثلا بنفس المواصفات الجسدية والموهبة، الذي يملأ الشاشة وهو يتقمص الشخصيات التاريخية، ومنهم النبي موسى، والجنرال جوردنو النبي يحيى، أو يوحنا.

أما ريكس هاريسون فهو الممثل الذي جسَّد أيضًا شخصيات مهمة عديدة منها الدكتور هيجنز في "سيدتي الجميلة" ودور يوليوس قيصر في فيلم "كليوباترة" .

إذن نحن أمام أجواء تتناسب مع الجدل القائم على خلاف في وجهات النظر باعتبار أن مايكل أنجلو لم يكن مجرد رسام بارع، وملون لا يضاهيه أحد.

بل هو يكسب عمله جانبه الشخصي كما يراه، ليس فقط فيما فعله هناك بأعلى كنيسة سستين، ولكن وهو يصمم تماثيله العظيمة ومنها "النبي موسى" و"الرحمة."

وقد حدثنا الفيلم أن الخلاف بين البابا ومايكل أنجلو كاد أن يزيح الفنان عن عمله وطمس ما أنجزه، والاستعانة بفنان آخر هو رفائيللو الذي كان منشغلًا بعمل آخر، لكنه لم يرفض، ولو لم يظل أنجلو على ثبات موقفه لتغير وجه التاريخ تمامًا في هذا الشأن.

لقد تم استدعاء مايكل أنجلو من فلورنسا إلى روما من خلال البابا جوليوس الثاني .

وبعد ان يستمع إلى الأوامر وبعد أن يبدأ العمل الشاق تبدأ مرحلة وقوف الفنان مع ذاته، فهل أنا رسام للبابا، أم للتاريخ، أم لإرضاء ذاتي، أم للزوار الذين سيترددون على المكان إما للتعبد أو للسياحة، لذا فإنه في لحظة تأمل، أحس الفنان الراقد في أعلى سقف الكنيسة قد شعر

بالقلق، وقرر التوقف عن العمل، نزل من أعلى، وتسرب خارج الكنيسة واكتشف أن حوله حراسة مشددة من رجال البابا فغافلهم وانطلق إلى الطبيعة الواسعة، وراح يتأمل خلق الله، وصار في حالة تغير، وعاد ليرسم ما يراه هو.

وهنا يبدأ الجدل الذي وصل إلى الخلاف الجاد، فقد اكتشف الحبر الأعظم أن الفنان فرض أسلوبًا غير مألوف، وأن شخصيات الإنجيل رسمها الفنان عارية كما خلقها الرب؛ فكأنه نزع عنها وقارها، وقال الفنان أنه يفعل ذلك لإضفاء معاني جديدة تبقي مع الناس، لكن البابا يرى أنه يجب عدم التدخل في حدود ما يعلمه للناس، في هذا الوقت كان الفنان يعاني كثيرًا إذ أن رذاذ الألوان كاد أن يسبب له فقدان البصر، أما البابا فلم يكن في أحسن ظروفه الصحية، وقد لجأ الفنان إلى الكونتيسة ميدتشي، باعتبارها صديقته كي تتدخل لدى البابا وتقنعه بوجهة نظره كفنان ما يراه، إلا أن الحبر الأعظم أوقف العمل وطلب ان يسند استكماله أو ربما البدء فيه من جديد من خلال زميله رفائيللو، وذلك بعد ان انهالت الاتهامات ضد الرسام بالهرطقة، وشارك البابا هذا الرأي الكثير من رجال الدين، وظل الفنان على اصراراه، حتى وإن وكل أمر العمل إلى غيره، والمشكلة أن كل منهما عند رأيه.. بل إن مايكل أنجلو يرى أن ما يراه يجب ألا يكون فقط في سقف الكاتدرائية، أو الكنيسة بل أيضًا في كافة البنايات بأسفل حتى تكون هناك وحدة فنية لا تخلو من التنوع الموضوع.

لقد لعبت الكونتيسة دورًا مهمًا كحمامة السلام بين البابا المريض والفنان الذي يكاد يفقد بصره، ويعاني السقم من شدة السموم الموجودة في الألوان، كما أن السقالات انهارت ذات يوم وكاد مايكل أنجلو أن يدفع بحياته، ولهذا لسبب جعل الفيلم من الفنان رجلًا قوي البنيان قادرًا على مواجهة الظروف الصعبة وهو يسمع بأذنيه أنه خارج عن العقيدة وهرطقي، وتلك اتهامات قد تقصم ظهر الفنان وتقلب له مزاجه وتنحي به إلى ما يحب أن يقدمه.. وقد اكتسب مايكل أنجلو بموقفه المزيد من الخصومات خاصة من المهندس المعماري دوناتو برامانتي الذي صمم البنايات، والغريب أنه وسط هده الظروف فإن البابا جوليوس ذهب ليرى ما تم إنجازه وفي ذهنه الوساطة التي قامت بها الكونتيسة، وبالفعل رأى الأمور نفسها بمنظور جديد وسرعان ما تم إصدار أمر باباوي باستدعاء مايكل أنجلو من فلورنسا، ويذهب رافائيلو بنفسه إلى هناك لإحضار الفنان من أجل مقابلة البابا.

ويكشف الفيلم أن هناك اختلافًا واضحًا بين المدرسة الفنية التي ينتمي إليها رفائيللو أحد ابناء مدرسة أثينا، وبين ما يمثله مايكل أنجلو.

ويعود مايكل إلى السقالات يرسم كما يرى، وفي عام ١٥١٢ انتهى العمل العظيم الذي وضع سرًا جميلًا في عالم الفن التشكيلي الذي تم في فترة عانت فيها إيطاليا من حروب فرضت عليها من الخارج، بما يعكس كافة الظروف الاجتماعية والتاريخية.

الروائي إرفنج ستون عاش بعض السنوات في فلورنسا، وانتقل أيضًا إلى روما وكان قريبًا من الأماكن التي عاش فيها الفنان، لذا جاءت روايته بالغة الصدق، أما كارول ريد فقد قدم تحفة سينمائية رشحت للحصول على جوائز الأوسكار في إطار أحسن ملابس وأحسن ادارة فنية، وأفضل موسيقى لأليكس نو الذي قدم "سبارتاكوس" وأيضًا أحسن تصوير وأحسن صوت، وقد اعتمد المؤلف في روايته على الرسائل التي كان يرسلها مايكل أنجلو إلى معارفه طوال حياته أما كارول ريد فقد أحب دومًا العمل مع شارلتون هيستون ومن أفلامه: "معا في نفس السنوات"، و"خمسة وخمسين يومًا في بكين."

روميو وجولييت .. اللوحة والشاشة

"قصة حب مات بطلاها، ولا يزالان على قيد الحياة" ما أجمل قصص الحب الخالدة، وما أشد تأثيرها في الناس خاصة الفنانين يحاولون أن يجسدوها إما في صورة لوحات أو أفلام أو مسلسلات درامية وإذاعية وحكايات شعبية، وإذا تابعت هذه القصص التي يحبها الناس فسوف ترى أن أغلبها يدور حول قصص الحب المستحيل،

يدفع ثمنه عشاق شباب يؤكدون بسلوكهم أن الحب أقوى من الحياة ويختارون الموت كما أنهم أقوى من الموت حيث تبقى هذه القصص الخالدة في ذاكرة البشر، تتجدد من جيل إلى آخر، ومن فنان إلى زميله، وروميو وجولييت هذه المسرحية الخالدة التي كتبها شكسبير تكشف عن وقائع قصة حقيقية، وقعت قبل خمسة قرون، وقد رسمها في أحسن صورة فنانين عظماء تركوا لنا لوحات مبهرة تعبر عن مشاهد من وقائع غرام الفتى الصغير بحبيبته منذ أن التقاها إلى أن قرر الاثنان الانتحار، خاصة مشاهد اللقاء في الحفل الراقص، فتولد الحب، ثم مشاهد عديدة منها موت الحبيبين متجاورين.

إلا أن المشهد الأكثر شهرة دومًا يمثل الشرفة التي صعد إليها روميو من أجل أن يشاهد حبيبته وهو المشهد الذي خلَّد القصة في

التاريخ الدرامي بما يعادل مشهد الانتحار المزدوج، باعتبار أن الشاب العاشق قد أثبت جرأته، وعمق مشاعره، فلم يشعر بأي خوف فتسلل إل مترل خصوم أسرته اللدودين، وشاهد ضوء الشرفة وصعد فوق الشجرة، وقفز إلى النافذة وكان اللقاء ..

لم يأبه الحب للعداء، أو للخطر، وانما كان كل هم الفتى هو أن يلمس حبيبته وأن يلتقي بها ولم تكن الفتاة الصغيرة بأقل اندفاعًا نحو حبيبها، وهي تستقبله ثم وهي تستودعه، هذا المشهد الرائع رسمه اللفنان فورد مادوكس براون في لوحة رائعة عام ١٨٧٠ تصور الشاب وقد تمكن من الصعود إلى شرفة فتاته عن طريق الحبال وقد وضع نصف جسمه داخل الشرفة وتمكن من تقبيل جولييت، وقد أبدت استسلامًا له وهي تضع يدها اليمنى على صدره بينما تغطي الزهور متعددة الألوان الشرفة والأفق، وقد عكس الفنان أجواء الغسق بدلًا من ظلام الليل كي يعطي لضوء الشمس الغاربة سحرًا ملحوظًا، وكان هناك تقارب ملحوظ بين اللون الأرجواني لملابس العاشق الشاب، وأضواء الشمس التي تذهب إلى النوم، كما أن الفنان الإيطالي فرانشيسكو هايز قد رسم لوحة زيت على كانفاه تحمل اسم "القبلة الأخيرة لجولييت من روميو" عام ١٨٢٣ رسم فيها العاشق وقد تمكن من الدخول إلى غرفة فتاته وحسب عنوان اللوحة فهو يكاد يغادر الغرفة، وقد بدت الفتاة في قمة إغرائها، كأنها نالت من كأس الحب ما يشبعها، وأيضًا لعل ذلك يوحي أنهما قد صارا زوجين.

إلا أن اللوحة هي أيضًا للشرفة الخالدة وقد وضع روميو يده اليمنى على باب النافذة متأهبًا للخروج أما الفنان فرانكس ديكسي فقد بدا كأنه يرسم لوحة زميله مادوكس بعد إنجازها بعشرين عامًا أي ١٨٩٠، ومن منظور آخر، كأن كاميرا "ريشة ومنظور" الفنان ترى لوحة مادوكس من داخل غرفة جولييت، وقد مد العاشق قدمه اليمنى وارتدى الملابس نفسها، بينما وقفت الفتاة تتلقى قبلة حبيبها، وفي البداية فلعلك تتصور كأن رسامًا واحدًا هو صاحب اللوحتين لشدة التشابه بين اللوحتين، هذه الأعمال وغيرها، ومنها "المشهد الأخير" تعكس شغف الفنان التشكيلي بهذه القصة العاطفية الخالدة، ولا أستطيع أن أجزم أن مثل هذه الاحتفالية بالعاشقين قد قوبلت بها قصتنا الغريبة "مجنون ليلى" في عالم الفن التشكيلي، لكن القصة نفسها، وإطارها التاريخي، ساعدت الفنان التشكيلي في أن ينهل من مشاهدها، وأيضًا ساعدت فنانين آخرين وعلى رأسهم مصممو الأزياء في تصميم أعمال فنية نادرة وأذكر أنني شاهدت باليه روميو وجولييت في أوبرا مدينة فلينوس عاصمة ليتوانيا فبدا إلى أي حد تنافس الفنانون في عمل كل مشهد أو لقطة كأنك ترى مجموعة من اللوحات الفنية الكبرى، روميو وجولييت في السينما لا تأتي أهمية تحويل هذه المسرحية إلى أفلام سينمائية من خلال العدد الكبير للأفلام التي تم اقتباسها في كل اللغات، بما فيها السينما العربية، بل إن كثير من هذه الأفلام كان وراءها مخرجون بالغو الاهتمام والتميز على رأسهم جورج كيوكر، وفرانكو زيفيرللي، وكمال سليم، وبازليرمان وبيتر لآو ستينوف، وقد تسابق مخرجون كثيرون في إخراجها سواء في

إطارها التاريخي القديم في القرن الرابع عشر، أو في العصر الحديث، حيث قدَّمها روبرت وايز في أجواء مدينة نيويورك المعاصرة في فيلمه "قصة الحي الغربي" الذي نال العديد من جوائز الأوسكار عام **١٩٦٢**، أما المخرج الأسترالي الأصل ليبرمان، فقد صبغ الصراع الذي دار بين شباب العائلتين المتخاصمتين بدموية ملحوظة تدور في مدينة فيرونا عام "**١٩٩٦**" في الفيلم الذ قام ببطولته ليونارد دي كابريو قبل أن يقوم بدور عاشق آخر في فيلم "تيتانك" وفي السينما المصرية، اقتبس إيهاب راضي الفيلم الذي قدمه ليرمان في فيلمه "حبك نار" عام **٢٠٠٤** قصة واحدة، حول الحب اليائس المستحيل رأيناها عشرات المرات بصيغات عديدة منها الكوميديا، والاستعراض، وفي كل الحالات فإن القصة الرومانسية تحركت بعبارات شكسبير ومصير الأبطال... فأذكر أنه في فيلم "روميو وجولييت" لبازليرمان أن الأبطال العصريين كانوا يتلون الحوار الشكسبيري في المقام الأول، وفي هذا تناقض واضح بين شاعرية الحوار، وبين عنف الأبطال الذين أسالوا دماء بعضهم البعض فوق أسفلت مدينة فيرونا، مدينة فيرونا هذه شهدت الصراع بين عائلتين من أرقى العائلات، الأولى منتيجيو والثانية عائلة كابوليت، إنه صراع أزلي، يعاني روميو من احتياج عاطفي يتوجه إلي حفل تنكري لعائلة كابوليت حين يعرف أن روزالين مدعوة وفي الحفل يقابل جولين ابنة العائلة الخصمة ويقع في حبها على الفور، يعرف ابن عم جولييت الشاب تيبالث بالأمر ويتشاجر مع روميو، إلا أن صاحب الحفل والد جولييت يتدخل لمنع الشجار يذهب روميو في الليلة الثانية أسفل شرفة جولييت، ونعيش

مشهد الشرفة الخالدة ويتفقان على الزواج، ويذهبان إلى القس ويتزوجان سرًا، تقرر العائلة تزويج ابنتهم من تيبالث، يموت مرتوسنيو صديق وقريب روميو في نزال مع تيبالث، يثأر روميو لمقتل صديقه، وينازل خصمه ويقتله ويهرب ويحكم على الشاب بالنفي وتموت أمه حزنًا..

في المنفى يعرف أن جولييت ماتت في الوباء ويذهب إلى مقبرهما، ويبكي عند تابوهما، ويقابل باريس ابن عمها ويشرب السم ويموت ولكن جولييت لم تكن قد ماتت إذ هي شربت السم بدون مفعول، تتصالح العائلتان بعد رحيل العاشقين، وقد تعمدنا أن نوجز المسرحية في هذه السطور لنرى التفاصيل المتضاربة للأحداث فقصة الحب المتفاني تنمو وسط أجواء مليئة بالعداء والكراهية والمنافسات والخصومة، مما أسفر عن زواج سري، وأيضًا علاقات سرية وزواج غير مطلوب ودماء تتناثر ثم هروب ونفي وانتحار يائس، وسوء فهم أدى بدوره إلي انتحار مزدوج حقيقي يقوم به كل من العاشقين تباعًا لا شك أن العاشقة الإيطالية قد كانت أكثر إيجابية، من زميلتها العربية، حيث أن ليلى امتثلت لأمر أبيها وتزوجت من رجل آخر، بينما اكتفى حبيبها بفضحها عبر قصائده، أما روميو فكان عاشقًا إيجابيًا، قفز إلى الشرفة ونال ما يريد ثم تزوج ..

وفي الوقت الذي رسم الفنانون أجمل اللوحات تعبر عن رومانسية القصة كما سبقت الإشارة، وإن كانت هناك لوحات أخرى صورت الصراع القاتل بين شباب فيرونا.. أما السينما العالمية والعربية

فقد استفادتا من مسألة الخصومة بين العائلتين وهو موضوع موجود في المدن والقرى بأنحاء العالم في كل العصور ورأينا معالجات امتلأت بتفاصيل حول العاشقين اللذين يعيشان في قصة حب يغلفها المستحيل وتحوط بها الصعاب، فكانت النتيجة الحتمية والحقيقة أن أغلب القصص السينمائية العالمية قد انتهت بموت العاشقين ابتداءً بفيلم إخرجه جورج كيوكر عام ١٩٣٦ قامت ببطولته فورماشيرر، وسوف نلاحظ أن أغلب من قاموا بأداء هاتين الشخصيتين في أفلام كثيرة كانوا من الوجوه الجديدة وكان أصحاب هذه الوجوه ذوي عمر قصير في السينما، عملوا في أفلام قليلة، ثم اختفوا ليبقى دور كل منهم في روميو وجولييت هو الأفضل مثل "أوليفيا هوسي" و"ليوناردو واينتج" في الفيلم الذي أخرجه فرانكواز زيفيرللي عام ١٩٦٨، وهو من أبرز الأفلام التي تم تقديمها حول الحب المستحيل في تاريخ السينما.

زفريللي وشكسبير

في فترة خصوبته السينمائية تفرغ فرانكو زفيريلي لتقديم بعض أعمال شكسبير لتكون من أهم الأعمال السينمائية التي قدمت مقتبسة عن مسرحياته وكانت البداية عام **1966** بفيلم "ترويض النمرة" الذي قام ببطولته نجمان كبيران هما إليزابيث تايلور وريتشارد بيرتون،

أما الفيلم الثاني فهو روميو وجولييت عام **1968** وفيه استعان باثنين من الشباب الجدد للقيام بدور العاشقين الشباب، وقد حرص أن يكون أبطال الفيلم من الوجوه الجديدة بدرجة أن الفيلم سمي بـــ "فيلم الشباب" وكان الجديد هو إسناد دور بارز إلى لورانس أوليفيه المشهور والعجوز الذي قام بدور الحبيب والراوية، وهو الذي قدم روميو كممثل ومخرج مسرحي في تجارب عديدة وقد استخدم المخرج زفيريللي أسلوبه الذي سبق تقديمه في الفيلم عن "ترويض النمرة" من حيث التصوير في إحدى القلاع الإيطالية القديمة واستخدام ديكورًا بالغ الفخامة، فالقصر الذي تم فيه التصوير يعود إلى الكاردينال سيبيون أحد الوجوه البارزة في القرن السادس عشر، لذا جاء مشهد الشرفة هنا أكثر مصداقية بالإضافة إلي تصميم الملابس والاستعراضات وهي الأشياء التي تبدو جديدة باعتبار أن المشاهد يعرف تفاصيل القصة مسبقًا.

وقد حصل الفيلم على عدد من الجوائز في هذا المجال بدون منافسة، وبالإضافة إلى أغنية يوجين ألدر فإن استعانة زفيريلي بالموسيقار نيتو روتا الذي قام بتأليف موسيقى فيلم "سبارتاكوس" قد أعطى التجربة السينمائية ثقلًا فنيًا ملحوظًا، الناس تعرف الموضوع مسبقًا لكنهم لم يسبق لهم مشاهدة عالم العاشقين بهذه الفخامة وسرعان ما صار أبطال الفيلم الشباب أكثر شهرة.. فقد رأينا أوليفيا هوسي التي قامت بدور جولييت تقوم بدور السيدة مريم العذراء في فيلم "يسوع الناصرة" في عام **1976** أي أنها سرعان ما تحولت من عذراء حقيقية إلى أم السيد المسيح في أقل من ثماني سنوات، كذلك عمل كل من ليوناردو واينتج وجون ماكانري في العديد من الأفلام الأوروبية قبل أن يختفي الثلاثة معًا في فترات متقاربة وقد حقق الفيلم أعلى الإيرادات من بين الأفلام العالمية المأخوذة عن روميو وجولييت، ولعل ما فعله المخرج كان بمثابة رؤية ثاقبة للمراهنة أن يكون العاشقان من الوجوه الجديدة وقد اعتبر زفيريللي الوجه الإيطالي الذي يقدم البيئة الإيطالية التي تدور فيها أحداث الفاجعة العاطفية، كما أنه قريب للغاية من الثقافة البريطانية المكتوب بها النص وقد امتلأ الفيلم بإبهار ملحوظ يتناسب مع عبقرية النص وخلود الكتابة وبدا كأن الفيلم ينافس نفسه فقط في تقديم "روميو وجولييت" حيث خبت التجارب السينما التالية، وعندما قدمت من جديد عام **1996** كان يجب أن تكون ذات صبغة عصرية "رومانوف وجولييت" لفتت هذه المسرحية أنظار السينمائيين منذ بداية السينما الصامتة في أوائل القرن العشرين على يدي الأخوين لوميير.

وقد تنافست السينما مع المسرح لتقديم هذه المأساة العاطفية فكانت الشاشة تطل علينا في فترات متقاربة لتقديم القصة بمعالجات متجددة تجذب المزيد من المشاهدين ولعل من أشهر هذه الأفلام ما قدمه الإيطالي "ريناتو كاستللاني" عام **1954** في فيلم حقق الجائزة الكبرى في مهرجان فينيسيا من بطولة لورانس أوليفيه، وكم تغيرت أسماء الأفلام، لكن كان كل عداء بين العائلات في البلاد يقابله حب جارف بين أبناء وبنات هذه الأسر في أفلام مثل "رمانوف وجولييت" إخراج بيتر أستينوف، والفيلم الهندي "كايمات" عام **1988** وهو من بطولة أمير خان.. أما في السينما المصرية فإن هذه الوقائع تناسبت مع الواقع المصري، سواء في الريف أو المدينة، وشاهدنا القصة ما لا يقل عن سبع مرات منذ عام **1942** حيث قدمها محمد كريم في فيلمه "ممنوع الحب" في إطار عصري، وتغيرت الوقائع كثيرًا، حيث قام محمد عبد الوهاب بدور العاشق الذي يخبر أهله أنه سيتزوج ابنة الخصوم كي ينتقم من الأهل، بأن يسومها العذاب وبالطبع لم تمت جولييت العصرية كالعادة، وكما سنرى عام **2004** في فيلم "حبك نار" لإيهاب راضي، وفي عام **1947** قدم إبراهيم المسرحية في إطار "البدوية الحسناء" كما أن حسين عمارة قدم القصة نفسها في فيلمه "قصة الحب العربي" المأخوذ عن فيلم أمريكي بالعنوان نفسه أكثر من المسرحية.

وفي عام **1965** قدم عبد العليم خطاب القصة بشكلها الدموي في قصة بدوية تدور في منطقة "العلمين" وهي معالجة لم يكتب لها النجاح إلا أن برز ما فيها هو قيام المطرب إبراهيم حمودة بالغناء.. وهو الذي قام

بدور روميو "بدر" في الفيلم الأكثر أهمية المأخوذ مباشرة عن مسرحية شكسبير في فيلم "شهداء الغرام" عام **1944** من إخراج كمال سليم الذي بدا مشدوها بالنص فأخرجه في أجواء تاريخية أقرب إلى فيرونا التاريخية وعاد بنا إلى عصر المماليك وقد جسدت ليلى مراد هنا دور وفاء "جولييت" حيث الصراع على أشده بين أسرتي الجزار والشريف، وقد التزم السيناريو الذي كتبه المخرج بالنص الشكسبيري كما حكيناه، فرأينا الحب والانتقام والخصومة والصراع، وأضاف النص أغنيات ليلى مراد، ورأينا بدر يهرب من السجن حيث ينتظر الإعدام بعد أن قتل خصمه، ابن عم وفاء وخطيبها، أما وفاء فإن رجلًا طيبًا يعطيها سمًا بغير مفعول كي تموت بشكل مؤقت، ثم تصحو بعد ثماني ساعات ويأتي بدر لإخراجها من المقبرة ليجدها جثة هامدة وينتحر اعتقادًا منه أنها ماتت إلا أنها تصحو لتجد بدر ميتًا فتنتحر بدورها، وهكذا يعتبر الفيلم هو الأقرب إلى نص شكسبير لكن الغريب أن الفنان التشكيلي العربي لم يرسم هذه اللوحات بالطريقة التي تحدثنا بها.

رينا جوتوسو Renato Gutuso

في النصف الثاني من ثمانينات القرن الماضي كان لدي شغف كبير بعمل مركز معلومات ورقي ضخم يضم كل ما تقع يدي عليه في فروع متعددة على رأسها الأدب والسينما والفن التشكيلي، وعرفت أين أجد المجلات العالمية الحديثة بلغات متعددة، وبأسعار رمزية وبهرتني شخصيات فنية لا أتصور أن أحدًا في مصر كانت لديه معرفة بها ولا بفنونها.

ولعل أبرز هذه الشخصيات هو الفنان التشكيلي ريناتو جوتوسو الذي نشرت المجلات الإيطالية – وما أكثرها – مقالات عنه عقب وفاته في 27 يناير **1987** عن عمر يناهز السادسة والسبعين ونشرت صورًا للوحات بأحجام متعددة وكانت هذه مناسبة حقيقية للكتابة عن علاقته بالفنانة مارتا ماستوتو التي كانت أيضًا نموذجه الذي يرسمه دومًا، امرأة جميلة فاتنة، تعرف كيف تجلس أمام الفنان ليرسمها، ولابد للمشاهد أن يشعر بالغبطة لوجود مثل هذه الفاتنة في حياة جوتوسو ينقل إلينا عبر لوحاته كل ما يتمتع به من فتنة وجمال..

وكونت ملفًا ضخمًا من القصاصات الصحفية الإيطالية حول جوتوسو وكم حدثت أصحابي من نقاد الفن التشكيلي وعرضت عليهم الملف وكنت حريصًا على الاحتفاظ بالملف إلا أن انبهر به بشدة أحدهم،

وسط القسم الغليظ المعتاد أخذ الملف ولم يعده، وكم شعرت بالندم لضياع الملف لأنه يعبر إلى أي حد مازلنا لا نعرف شخصيات مهمة جدًا على رأسهم جوتوسو.

كنت أتصور أن الزمن سوف يلقي برمال النسيان على جوتوسو، مثلما فعل مع غيره من أبناء جيله الذي عاش حربين عالميتين، فاشترك في أعمال المقاومة، وكان الفن بالنسبة له وسيلة حياة وأسلوب عيش فالرسم هو المرآة الشديدة اللمعان التي تجعله يعيش، يستمتع ويمتزج ويختلط، ويندمج، وقد عثرت أخيرًا على بديل إلكتروني عن الملف الورقي الأصلي الضائع، وقررت أن أكتب عنه وأعبر عن إعجابي الشديد به.

اكتسب جوتوسو أهميته من سلوكه كإنسان بالإضافة إلى ذوقه الفني العالي حيث اتخذ من نموذج لرسم اللوحات وقد عرف عنه أنه شارك في المقاومة، وكان معارضًا للفاشية، وقد انضم إلى الشيوعيين الإيطاليين في بداية حياته، وانتمى إلى المدرسة الواقعية في الفن التشكيلي، واتسمت رسومه بالشفافية، وكانت لوحاته دوما مرتبطة بما شهدته إيطاليا من أحداث جسام، كما أن هذه اللوحات كانت تعبر عن روح مدينة بافاريا في جزيرة صقلية، ذات الطابع الثقافي والحياتي الخاصين ورغم ذلك فإن لفنه مكانة عالمية مميزة بالغة التفرد.

هو مولود لأب مسَّاح أراضي – مثل والد يوسف إدريس – في مدينة صغيرة تبعد مسافة 250 كيلو مترًا عن باليرمو عاصمة صقلية،

وقد انبهر الابن بمهنة أبيه وعمل صغيرًا في ورشة الفنان دومنيكو كواتروشوكي، وأيضًا في محلات الديكور، لذا بدأ يرسم لوحاته في مرحلة مبكرة للغاية، وبدأ يؤرخ للوحاته ويوقعها وهو في سن الثالثة عشر، بما يعني إحساسه المبكر بقيمة ما يرسمه، وما يتمتع به من موهبة، وجاءت هذه الأهمية أيضًا من خلال شغفه الشديد بالمناظر الصقلية فكرس وقته لرسم الوجوه المتعددة للجزيرة وطبيعتها والبشر الذين يعيشون في الجزيرة، وقد تألق في ذلك أيضًا من خلال قدرته المتناهية في رسم الوجوه، وإكسابها معان تنعكس من خطوط هذه الوجوه.

وفي متحف مدينته، توجد لوحة مرسومة عام **1925**، توضح أسلوب الكاتب في سن مبكرة، ما يكشف عما يتمتع به من موهبة، وحصل على مكانة، هذه اللوحة بمثابة بورتريه لأبيه تعبر عن واقعية الفنان الشاب وقد ترك الأب في ابنه معنى خاصًا بالحرية كما أنه كان أحد الجنود المصاحبين للثائر الإيطالي موحد البلاد جاريبالدي.

كان الناس في صقلية ولا يزالون يعيشون في بيوت تعكس الفن، والهندسة صممها مهندسون مباني وفنانون، بالإضافة إلى صخور البحر التي تميز الجزيرة وقد عاش جوتوسو في واحد من هذه المنازل، التي هي من رؤية بانورامية بمثابة لوحة وكما ذكرنا فهذه المناظر بهرت الفنان الشاب عكف على رسمها سنوات عديدة ولا شك أن شابًا من هذا الطراز عليه أن يقع في الحب في سنواته المبكرة، وأن يعيش أزمة مالية طاحنة أحاطت بصقلية منذ اندلاع الحرب العالمية الأولى ما أثر على

صبغة العصر الباروكي على المدينة، وأيضًا بسبب هذه الظروف فإن الجزيرة الجميلة عرفت العنف في الوقت الذي عانت فيه الأسرة من علاقة بالغة السوء مع الحزب الفاشستي الذي استولى على البلاد.

في وسط هذه الأجواء، شارك جوتوسو فنانين آخرين في معرضه الأول عام 1928أقيم في العاصمة باليرمو، حيث درس في جامعتها بدأ يتشكل ثقافيًا وفنيًا وحياتيًا واهتم بالتحول الملحوظ الذي أحدثه كل من كوربيه، وفان جوخ وبيكاسو في الفن المعاصر، وانتقل إلى الإقامة في ميلانو، ودفعته اللوحات أن يسافر إلى بقية المدن الأوروبية كي يرسم نساءها ومناظرها ووجوه ساكنيها وتأثر بقوة المدرسة الانطباعية، وفنانيها، وبدا ذلك في لوحاته حيث شغف برسم حقول أشجار الليمون، والزيتون وغلف لوحاته بأجواء أسطورية عبر عنها في معرضه الذي أقيم في عام 1931، حيث كتب عنه الناقد فرانكو جراسو أنها "صحوة وتأكيد على الهوية الصقلية" في الثقافة الإيطالية أدبيًا وفنيًا، وهناك تأكيد دائم على خصوصية الإبداع الصقلي فهو متميز ومختلف.. وقد عاد جوتوسو دومًا إلى جزيرته من أجل أن يرسمها بصورة جديدة، كفنان عرف الحرية والموقف السياسي ولم يرق له ما حدث في إسبانيا عندما اندلعت الحرب الأهلية عام 1936، كما أحس ليلة اندلاع الحرب العالمية الثانية بأن هناك غبارًا قادمًا لن ينقشع بسهولة.

وقد كتب النقاد أن المرحلة المهمة في تاريخ جوتوسو الفني هي تلك السنوات الثلاث التي عاشها في ميلانو، ورسم لوحات ناضجة تعبر

عن حسه الفني الشعبي حيث تلاحمت رؤيته السياسية مع ما يرسمه، وأهدى إحدى لوحاته إلى الشاعر الإسباني حيث تلاحمت رؤيته السياسية مع ما يرسمه، أهدى إحدى لوحاته إلى الشاعر الإسبانى جارثيا لوركا وفيما بعد قرر أن يتجه إلى روما فصار قريبًا من اهم الفنانين الإيطاليين في تلك الحقبة، ومنهم ماريو مافاي، وكوراتو كالي، ولم تنقطع علاقته قط بأقرانه من الفنانين الذين يعيشون في ميلانو، وفي عام **1941**، رسم لوحة "الصلب" التي مزج فيها رؤيته الدينية والسياسية تجاه فظائع الحرب.

وطوال سنوات الحرب، عمل جوتوسو في رسم ما سمي "طبيعة ميتة" التي رسم فيها تفاصيل الحياة في صقلية، ومن أهم لوحاته في هذا الشأن "مذبحة قوس" عام **1944**.

وبعد انتهاء الحرب تعرف الشاب على ميميس التي رسم لها بورتريهًا رائعًا ثم تزوجها وبدأ يرسم بالقلم الحبر الصيني والألوان المائية وغيَّر من أدواته، وهي إحدى سماته المهمة، حيث كان يسعى دومًا إلى التجديد، والانتقال من جديد إلى آخر، وكان همه في بداية الخمسينيات هو رسم ما أسماه احتلال صقلية، ومن لوحاته البارزة "معركة جسر أميراليو" حيث رسم لوحة تعبر عن جده وقد أخذ ملامح جاريبالدي، كما رسم مجموعة من اللوحات تعبر عن المقاومة في الريف الصقلي. وما إن انتهى عقد الخمسينيات، حتى قرأ "الكوميديا الالهية" لدانتي، ورسم العديد من اللوحات تعبر عن أجواء ذلك الكتاب الخالد في الثقافة الإيطالية، وقد جمع هذه الرسومات عام **1970** تحت عنوان "دانتي بريشة جوتوسو" استجمع فيها الشخصيات الموجودة في "الجحيم"

وقد تجلى حب جوتوسو للنساء ابتداءً من عام 1967 حيث شغف برسم الكثير من اللوحات حتى ظهرت في حياته مارتا مارتسوتو، فتسلطت عليه بجمالها وفتنتها وصار يلاحقها باللوحات التي أبهرت الناس وتساءل البعض هل في حياتنا مثل هذه المرأة بل: وهل في إيطاليا مثل هذا الرسام، وقد ظلت مارتا بمثابة امرأته المفضلة للرسم، وكانت تتألق وتزداد رونقًا كلما رسمها، وتتأجج علاقة الحب بينهما، ولا نريد أن نؤكد أن لوحات تصور مارتا هي الأفضل بالنسبة للفنان فقد كان دومًا متألقًا في كل ما يرسم.

مارتا المولودة عام 1931 هي واحدة من أشهر عارضات الأزياء في إيطاليا في النصف الثاني من القرن الماضي، وقد ارتبطت بالحركة الفنية والثقافية في بلادها بشكل مكثف، حتى الآن، كانت علاقتها بجوتوسو هي الأبرز في حياة كل منهما رغم أن كل منهما كان مقترنًا رسميًا بطرف آخر، وقد نشرت سيرتها الذاتية عام 1990، وتعد لوحات جوتوسو عنها هي الأجمل والأشهر في حياة كل منهما.

في عام 1972، حصل على جائزة لينين للسلام في الاتحاد السوفييتي، وهي تعادل جائزة نوبل على الطريقة السوفييتية كما صار عضوًا في البرلمان الإيطالي، وقد تأثر الفنان كثيرًا برحيل زوجته وكان قد رسمها كثيرًا أيضًا، وكما أشرنا فإن النساء تملأ لوحاته، ومنها على سبيل المثال بنات باليرمو 1940، وبورتريه أمي 1939، ومارتا مارتوسنو من ظهرها في ثور أحمر 1970 وغيرها

رؤية العالم التشكيلية في أفلام مصرية

في فيلم "باري ليندون" عام **1977** المأخوذ عن رواية للكاتب الكلاسيكي ويليام ثاكراي، أراد المخرج ستانلي كيو بريك أن يعبر عن القرن الثامن عشر، فقام بتجسيد حي للوحات الفنان الهولندي رمبرانت، بحيث أن المشاهد يمكنه أن يرى بعض لوحات الفنان داخل أحداث الفيلم.

ونحن هنا لسنا أمام واحد من عشرات الأفلام العالمية التي تتبع مسيرة حيوات الفنانين التشكيليين من المشاهير التي امتلأت بها ساحات السينما العالمية، فنرى الأجواء نفسها التي عاشها الفنان في حياته، ونتعرف على لوحاته.. لقد أراد المخرج البريطاني أن يعبر عن شغفه الشديد بالتشكيل السائد في القرن الثامن عشر، فاختار رمبرانت كنموذج، وجعلنا نرى لوحاته مجسدة في المشاهد التي تجمع بين باري ليندون وإحدى النساء اللاتي ارتبط بهن..

ورغم أن هناك مخرجين عالميين لديهم عشقهم الملحوظ للفن التشكيلي، مثل الياباني أكيرا كيرو ساوا، والأمريكي مارتن سكورسيزي، فإن ما فعله كيو بريك، يعد حالة فريدة من نوعها، في حدود مشاهداتي، ورغم أنني شاهدت الفيلم، منذ نيف وثلاثين عامًا، فإن الأمر لم يتكرر بالمرة..

لقد صنع المخرج ظاهرة خاصة به، وهي أنه رسم لوحة شهيرة لفنان كبير من طراز رمبرانت على الشاشة بشكل حي، الألوان نفسها، والأجواء، والأشياء، وأيضًا الأشخاص، وجعل المشاهد يعيش طوال مشهد قصير في الظروف التي عاش فيها رمبرانت..

يعكس هذا، إلى أي حد توحد المخرج السينمائي مع لوحة ما أحبها، وهو الذي تحمس لرواية بريطانية من الكلاسيكيات المشهورة، فقد اختار للوحته الجماليات الخاصة بالرسام، ولم يضف من عندياته أي جماليات، ولا شك أن هذه الظاهرة الفريدة ليست موجودة في أي سينما أخرى، خاصة السينما العربية..

منذ عامين، دار حوار هاتفي بيني وبين المخرج الشاب إيهاب لمعي الذي تخرج في كلية الإعلام، وعمل مصممًا للأزياء، وأثناء الحديث أكد لي أن أهم ما يميز أفلامه، هو عشقه البارز للفن التشكيلي، وقد تصورت أن المخرج قد عكس ذلك في أفلامه، وأغلبها تجاري تدور أحداثها في الفنادق أو على الشواطئ، ولم أتمكن من لمس أي تأثير تشكيلي على الفنان الشاب..

في مقدمة فيلم "فجر يوم جديد"، أخرج يوسف شاهين عام 1965، أدهشنا المخرج بمحاولته عمل تشكيل خاص به في فترة ازدهرت سينما الأبيض والأسود، من خلال انسكاب ألوان بدرجات مختلفة، وبكثافة معينة هي كثافة ألوان الدهان الموجودة في علب البوية، وليست ألوان الأنابيب التي يستخدمها الفنان، وفي تلك الفترة كانت

مدارس التجريب الفنية في مصر قد بدأت تنتشر بقوة، فكأنما المخرج أراد أن يقول أنه فنان معاصر، فلا شك أن الألوان انسكبت بشكل تلقائي وصنعت تشكيلًا جديدًا بالنسبة للأعين، خاصة في تلقائية سكب اللون البالغ النقاء.

ولا يمكن للعين التي شاهدت هذه المقدمة أن تنسى ما فعله يوسف شاهين.. هناك عدة محاور أساسية في تعامل المخرج السينمائي المصري، وأيضًا المصور، مع الفن التشكيلي، تتمثل في تصوير الطبيعة، والديكور، وأحيانًا في الاستعانة بالرسوم المتحركة كعنصر رئيسي في مقدمات الأفلام، باعتبارها من روافد الفن التشكيلي. ومن الملاحظ أن المخرجين الذين لديهم مفاهيم، أو رؤى تشكيلية يمكنهم أن يعبروا عنها من خلال المشاهد أو اللقطات السينمائية قليلون للغاية، وقد ذكرنا حالة المخرج إيهاب لمعي كنموذج، فإذا كان هذا هو حال مخرج درس في كليات الفنون، فما بحال المخرجين التقليديين في رؤاهم، أو الذين لديهم ما أسماه كامل زهيري بأمية العين..

أغلب السينما المصرية، تدور أحداث أفلامها في الأماكن المغلقة الضيقة، مثل البيوت والبارات وصالات الرقص، وإذا تم تصوير الحياة خارج هذه الأماكن فإنها – في الغالب – تخرج الحوادث عن أُطُر الأماكن الطبيعية، سواء كان السفر داخل الوطن مثل فيلم "الحب في طابا" إخراج أحمد فؤاد عام **1992**، أو "فتاة من إسرائيل" لإيهاب راضي عام **1998** أو "الصفقة" لساندرا نشأت عام **2011**، الذي تم

تصويره في جنوب سيناء، بالإضافة إلى عشرات الأفلام التي صورت خلال العقد المنصرم في القرى السياحية بشرم الشيخ، أو الغردقة، ومنها "حريم كريم"، و"90 دقيقة"، و"أنت عمري"، وذلك عكس الأفلام التي صورت القبح الشديد في العشوائيات، منها "إبراهيم الأبيض" و"الأماني" و"عبده موتة" وغيرها، ولا شك أن التشكيل هنا أو الجمال، ينبع أساسًا من الطبيعة، والاتساع المتوافر بشكل ملحوظ أمام الكاميرا، أو جمال التنسيق المعماري الذي صنعه البشر، من خلال التصميم المعماري للقرى السياحية، أو تنسيق الزهور والحدائق، والمساحات الخضراء..

وقد بدأ التشكيل هنا، أقرب إلى البطاقات السياحية، في أفلام عديدة حديثة، مثل "شورت وفانلة وكاب" إخراج سعيد حامد عام 2000، و"خليج نعمة" إخراج مجدي الهواري عام 2007 ، و"الوردة الحمراء" لإيناس دغيدي عام 2001 ، وفي هذه الأفلام ليس أمام المصور سوى أن يستفيد من جمال الطبيعة وتشكيلاتها الربانية، مثل مشاهد غروب الشمس، أو شروقها، أو الاستفادة من لون البحر اللازوردي، لذا فإن الفنان التشكيلي هنا، لم يقم بأي إضافة جمالية إلى الطبيعة التي يصورها..

وقد حدث الأمر نفسه في الأفلام المصرية التي تعاملت مع الطبيعة بالمنظور نفسه، فيما يسمى بأفلام السياحة الأجنبية، وهي الأفلام التي تم تصويرها في دول أوربية، أو في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي هذه الأفلام يحاول المصور الاستفادة من جمال الطبيعة إلى أكبر قدر ممكن،

فيلجأ إلى التصوير الخارجي، حيث تبدو المشاهد أقرب إلى الكارت بوستال، ونرى الأبطال يقفون يتحدثون وسط المشاهد الطبيعية، فيما هو أقرب إلى الثرثرة، كي يمكن للمشاهد أيضًا أن تلتقط عيناه هذا المشهد غير الموجود في مدينته، وقد اتضح ذلك في عشرات الأفلام التي صدرت في اليونان، وسويسرا، وبريطانيا، وألمانيا، وفرنسا، ومنها "قنديل أم هاشم" إخراج كمال عطية عام **1968**، و"كفاني يا قلب" إخراج حسن يوسف عام **1977**، و"رحلة الشقاء والحب" إخراج محمد عبدالعزيز عام **1983**، و"اثنان على الطريق" إخراج حسن يوسف عام **1984**، والكثير من أفلام الجاسوسية، والمغامرات التي قامت ببطولتها نادية الجندي، أخرجها نادر جلال، ومنها "مهمة في تل أبيب"، و"**48** ساعة في إسرائيل" عام **1998**، و"أمن دولة"، و"حالة حب" إخراج سعد هنداوي عام **2004**، وغيرها..

كانت هذه هي السمة الأكثر أهمية بالنسبة لصناعة تشكيل فني، أقرب إلى البطاقات السياحية التذكارية، لكن بلا شك، فإن هناك رؤية تشكيلية ملحوظة، بدت واضحة في فيلم "المومياء" لشادي عبدالسلام عام **1975**، الذي اعتبر كله بمثابة متحف سينمائي تشكيلي، تم الاعتناء بكادراته، والظلال فيها، وهذا الفيلم يحتاج إلى وقفة تأملية في مقال منفصل. وتبدو هذه الظاهرة في أغلب أفلام المصور الراحل عبد العزيز فهمي ومنها "زوجتي والكلب" **1972**.

أما يوسف شاهين، السابق الإشارة إلى تجربته مع الألوان في فيلم "فجر يوم جديد"، فإنه في الكثير من الأفلام حاول الاستفادة من التشكيل الطبيعي للحياة في مناطق مصرية بعينها، وهو المولود في الإسكندرية، حيث ذهب إلى أطراف مصر، كي يصور الكثير من أفلامه، ابتداءً من جنوب الوادي في "ابن النيل" عام **1952**، و"صراع في الوادي" عام **1953**، و"أنت حبيبي" عام **1957**، ثم "المهاجر" عام **1994** كما أن يوسف شاهين ذهب إلى الصحراء في أفلام عديدة منها "شيطان الصحراء" عام **1954**، و"رمال من ذهب" عام **1966**، وذهب إلى الريف بكل اتساعه في "الأرض" عام **1970**، وصور السد العالي في فيلميه "النيل والحياة" عام **1968**، و"الناس والنيل" عام **1972**

ولا يعني الخروج إلى الطبيعة، محاولة لإضفاء أجواء تشكيلية على الفيلم، لكن لا شك أن يوسف شاهين كان صاحب ثقافة تشكيلية ملحوظة، وأنه قد سعى دومًا للخروج بالكاميرا إلى أجواء غير مألوفة، مثلما حدث بشكل واضح في فيلم "المهاجر"، سواء من حيث اختيار المكان، وأبعاد الكادر.. ويبدو التشكيل في أجمل حالاته من خلال المشاهد التي تدور في حقول القمح، حيث نرى ما يشبه لوحات فان جوخ، وهي تهتز بفعل الريح الخفيفة دليلًا على أن الحياة تتدفق داخل لوحة.

الكثيرون من المخرجين المصريين ذهبوا إلى العوالم الخاصة إلى الفنانين التشكيليين سواء في الحياة الخاصة مثل فيلم "جسر الخالدين"

إخراج محمود إسماعيل عام 1961 حول الأيام الأخيرة في حياة فنان تشكيلي مصدور فيما يشبه حياة موديلياني الذي خصصنا عنه مقالًا في الكتاب، كما أن فيلم "بالألوان الطبيعية" إخراج أسامة فوزي 2009 قد دارت كل أحداثه في إحدى كليات الفنون الجميلة مصورا كافة ما يحدث داخل الكلية سواء بين الطلاب وبعضهم حتى يتخرجوا، وكيف يتصرف الطلاب المتزمتون أزاء ما وهبهم الله من مواهب، أو شراء الأساتذة لمواهب الطلاب والمتاجرة بها لدى هواة ممن يشترون اللوحات، وفي رأيي أننا أمام فيلم جيد ومكتمل .

الدادية و تحطيم الثوابت

كانت الدادية دوما بمثابة اتجاه فني ضد كل ماهو تقليدي في الإبداع، سواء الفن التشكيلي، أو الكتابة الأدبية، خاصة الشعر، فوجدت صدى لدى الذين شعروا باللاجدوى من كل الإبداع البشري طوال قرون،

حيث أن كل هذه الفنون الراقية والكتابات لم تتمكن من إيقاف الحروب بين الأمم خاصة في القرنين التاسع عشر والعشرين، باعتبار أن الدادية التي تم الإعلان عنها في سويسرا في شهر فبراير عام **1916** كانت بمثابة صرخة حادة في وجه الحرب العالمية العظمى.

وليس من الغريب أن يتم الإعلان عن الدادية في مدينة زيورخ بسويسرا، كصرخة ضد الحرب، ولم يتم ذلك من خلال الحرب المسلحة ضد العسكر الذين يمثلون دول أوروبا المتحاربة، ولكن تم توجيه الخصومة ضد الفنون والآداب التي يعتبرها الإنسان بمثابة تراثه الأخضر الذي يجب الحفاظ عليه، فطلع الداديون يعلنون عن مسخ الكائنات الفنية وأبرزها لوحة الجيوكندا التي أضافوا إلى وجهها الأنثوي ملامح ذكورية بالشارب واللحية الخفيفة كصرخة احتجاج حقيقية، فقد كست الحروب المجانية، التي قامت بلا معنى، الإنسان ملامح قبيحة، وأجواءً تدعو إلى الرثاء.

لم تكن الحركة سياسية بالمرة، فالسياسة جلبت الحروب، أما الفن فجلب السعادة للبشر، وقد تم سماع اسم الدادية للمرة الأولى في حانة تسمى "كباريه فولتير" صارت دومًا بمثابة المقر الرئيس للحركة إلى أن تحولت إلى متحف للفن الحديث في عام **2003**، وقد شملت العديد من أنشطة الإبداع في التصوير والفوتوغرافيا، والشعروالمسرح ونظريات الفن والتصميمات الفنية بما فيها العمارة، ولا شك أنها ساهمت في تغيير الكثير من المناظير وكسرت حدة الرؤية التقليدية للأبعاد من حولنا، وكان الهدف المعلن في اليوم الأول لإنشاء الحركة هو: "أن ما نحياه لا يليق، الحرب كيان بربري، وقد ساندتها البرجوازية وسعوا إلى إشاعتها لتلبية مصالحهم". وهذا يعني أن الداديين لعبوا سياسة دون إعلان ذلك، فسبب الحرب هو البرجوازيون الذين يستفيدون من اندلاع الصراعات العسكرية اقتصاديًا وسياسيًا، وهي حروب تدفع الشعوب ثمنها، لكن خروج الدادية من بلد معروف بحياديته كان يجب أن تمتزج أهدافها بالفن، بعيدًا عن السياسة، وصار عليها أن تنطلق خارج سويسرا إلى البلاد المجاورة والولايات المتحدة، حتى لا تأتي نهايتها مع نهاية الحرب، ورغم أن نشاط هذه الحركة لم يدم أكثر من ست سنوات، فإنها طالت أنشطة بأسماء أخرى حتى يومنا هذا، منها السيريالية، والتجريدية، وكافة مسميات الحداثة التي عرفها القرن الماضي بأكمله حتى الآن، وقضت على الكلاسيكية في مقتل فلم يعد إليها الإنسان، ولا أظن أن هذا سوف يحدث مجددًا..

فقد سبقت الدادية السريالية، وكانت في حاجة إلى أسماء بارزة من أجل أن يطول عمرها مثلما حدث للسريالية على أيدي ماكس أرنست، وسلفادور دالي، فكل ما كان يريده الداديون هو عمل شخبطة على العصر دون تقديم بديل مبهر أو حتى نظريات يمكن تطبيقها بسهولة، وأن يعملوا بالسينما والفنون الجماهيرية مثلما فعل أندريه بريتون، ولوي بونويل؛ فالدادية ارتبطت بالهدم، ولذا كان عمرها قصيرًا للغاية ولم يكن لديهم مشروع بديل، ولهذا السبب سرعان ما تخلى عنها الأدباء والشعراء وكانت قصيرة العمر ولم تلمع مع مؤسسيها على المستوى الجماهيري، إلا أسماء محدودة انضمت فيما بعد إلى اتجاهات فنية أخرى.

كان الشعار الرئيس هو "لا للفن"، بعد أن ظل شعار المرحلة السابقة التي تنتمي إلى أوسكار وايلد هي: "الفن للفن". وكان الهدف هو وضع كل ما هو ضد الفن أمامه لعرقلة مسيرته، فهم أصحاب رؤية أنه ليس للفن أي رسالة، حتى علم الجمال الذي يرى أن فن الفن رسالة جمالية فإنهم لم يؤمنوا به، ونادوا بفهم الفنون ونتاجه حسب رؤية كل إنسان، وبسبب عزلته، ما جاء بالشعور العميق بالاغتراب، وقد رأينا ذلك واضحًا في لوحات العشرينيات وروايات أوروبا في الثلاثينيات ومنها أعمال البير كامي وهيرمان هيسه.

وكما أشرنا فإن معاول الهدم التي نزل بها الداديون كانت سببًا في مولد العديد من المدارس الفنية والأدبية ونظرياتها، ومن المهم

الإشارة أن كلمة دادية نفسها بلا معنى، كأن نقول شخبطة، أو لخبطة أو السح الدح، وقيل أنها تعني "نعم نعم" حسب اللغة الرومانية الناطقة في رومانيا، وهي الوطن الذي ينتمي إليه مارسيل جانكو صاحب البيان الأول المكتوب للحركة، كما أن الكلمة تعني "هنا هنا" باللغة الألمانية التي تتكلم بها مدينة زيورخ. وكان الهدف هو الوقوف ضد العقل البشري الذي سبب الكوارث للإنسان، ولذا كانت الفوضى هي البديل للمنطق، دون اللجوء إلى العنف لأنه ليس هناك عنف أكثر مما تجلبه الحروب

وكما أشرنا فإن الأسماء التي أسست للدادية مجهولة تنتمي إلى الثقافة الألمانية السويسرية التي تتكلم بها مدينة زيورخ، ومنهم تريستان تسارا، وهوجو بول، وصوفي تابويير، وإيمي هيتيللا. أما البيان الأول للحركة فقد أعده وقرأه مارسيل جانكو في الرابع عشر من يوليو من العام نفسه، حيث قال:"فقدنا الثقة في ثقافتنا، كل شئ يجب هدمه، وعلينا أن نبدأ من جديد، بعد أن نمحو كل شئ، ففي حانة فولتير سيبدأ صدام المنطق مع الرأي العام والتعليم والمؤسساتية والمتاحف والذوق المألوف، باختصار يبدو كل شئ أمامنا قاتمًا"

والغريب أن دول أوروبا لم تنظر إلى ألحركة بنفس المستوى، ففي الوقت الذي حرص فيه الألمان على هيبة الفنون والآداب ومدارسهما، فإن الفرنسيين تحمسوا كثيرًا لها، وفي **18**فبراير من عام **1918** قرأ ريتشارد هوسيسليك أول بيان للداديين في ألمانيا، حيث تم

إنشاء أول تجمع للدادية في البلد الذي خسر الحرب العظمى، وسط خصومة شديدة بين الفكر الشيوعي الذي انتشر في ألمانيا في تلك الفترة الذي نظر إلى الدادية على أنها حركة هدم في المجتمع بما يعني أن أصحاب الحركة الذين نأوا بعيدًا عن السياسة، وجدوا أنفسهم في صراع سياسي محتمل، وأمام هذه الخصومة انتشر تلاميذ الدادية بين المدن، وفي المؤسسات الثقافية باعتبار أن الألمان أيضًا شعروا بلا جدوي العقل الذي تميزت به فلسفتهم. وكانت الحركة في حاجة إلى تدعيم من فنان في حجم ماكس أرنست الذي صار داديًا عام **1920**، قبل أن يصير سيرياليًا، ويعلن خصومته لزملائه الذين بدأ معهم .

أما الفرنسي مارسيل ديشا فهو صاحب عملية المسخ الشهيرة التي تمت على الجيوكندة حيث تطوع رجال الفن التشكيلي ورجال الإعلان بعمل المزيد من تنوع المسخ علي اللوحة نفسها ومن أشهرهم الأمريكي آندي وارول

كان لابد للداديين الوصول إلى نيويورك مع أفكارهم، ومن أبرز الأسماء مارسيل ديشا، وفرنسيس بيكابا، وجان رايو، وهناك لقوا ترحيبًا من المجددين الأمريكيين مثل باتريك وود.. وهناك تغيرت معالم الحركة تمامًا، فهم لم يلجأوا إلى التظاهر، ولم يستخدموا كلمة دادا الغامضة المعنى، بل أصدروا مطبوعات غير دورية مثل "الإنسان الضرير" دليلًا على عدم وضوح الرؤية عند إنسان العصر الحديث .

أما مجلة "نيورك دادا" فقد انتقدت دومًا الفنون التقليدية، واستخدمت السخرية في الكتابة والرسم، وذلك عكس دادية أوروبا التي كانت تميل إلى إلغاء المألوف أكثر من اللجوء إلى السخرية، وبشكل عام فإن الحركة ظلت أوروبية المعنى والمفهوم خاصة في سنوات ازدهارها..

وقد سبقت الدادية وليدتها السيريالية في الاتجاه إلى السينما كمحاولة للتعبير، حيث أخرج الفرنسي رينيه كلير فيلمه "استراحة" الذي يعبر عن رفض الفنان للفن التقليدي، أما تريستيان تيسار فقد أقام صلات وطيدة مع مؤسسي السريالية ومنهم أندريه بريتون، وماكس جاكوب.. ويعتبر العام **1920** هو الأكثر ازدهارًا في تاريخ الحركة، حيث صدرت المطبوعات، وعرضت المسرحيات، وأقيمت المعارض، وفي العام التالي أقيم معرض ضخم يحمل اسم الفنان جان كروتي تحت عنوان "الممنوع" أو "المرفوض" "التابو"، وصارت الدادية تقليعة أكثر منها حركة فنية، حيث انتقلت إلى هولندا، وتم إصدار مجلة جديدة وجدت من يكتب فيها، وحرص الداديون على التأكيد أنهم ليسوا فقط من التشكيليين، بل أيضا يهتمون بالموسيقى، وقال هوجو بول: "يمكن لموسيقى الجاز والموسيقي الأفريقية أن يتوحدا مع الرواية" وذلك في إشارة إلى أن كل هذه الوسائل تتسم ببدائية ملحوظة، وأنها تسعى للعودة بالإنسان إلى البدايات .

وكما أشرنا فإن عمر الدادية الحقيقي لم يستمر أكثر من ست سنوات، وصار عليها إما أن تذوب في الاتجاهات الجديدة أو أن تختفي، حيث صارت العشرينيات ميلادًا حقيقيًا للسريالية والحداثية، والواقعية الاشتراكية، ومع بداية النشاط النازي، واندلاع الحرب العالمية الثانية كانت قد ذابت تمامًا، وإن ظل المعنى الرئيس للدادية هو معاداة الفن المألوف، ومع مرور الزمن ازدهرت حانة هوجو التي كان يتردد عليها الكتاب والفنانون الجدد من كل العالم ومنهم الروائي الأمريكي توم ستوبارد الذي كتب مسرحية باسم "تحريفات" عام **1974**

الآن بعد مائة عام من الدادية، ماذا تبقى منها؟.. أغلب الظن أنها كانت محاولة لتنبيه الإنسان إلى أنه لا يمكن أن يظل كلاسيكيًا إلى الأبد، ولعل الصورة التي يشاهدها الناس الآن قد تغيرت طوال العقود السابقة بسرعة لا تُصدق بعد أن جثمت الكلاسيكية فوق الأبصار لا بديل لها، ولولا الدادية ما دخلنا في جدل لم ينته طوال مائة عام .

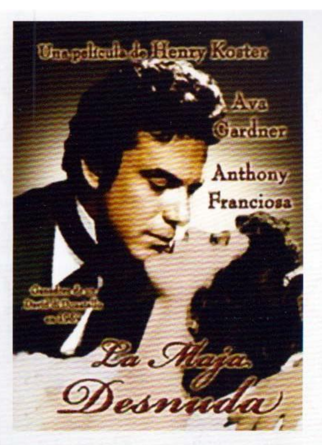
وقد واجهت الحركة الكثير من المتاعب منها إغلاق حانة فولتير؛ فتمت الاجتماعات في مقرات مؤقتة، بينما بدأ بعض المؤسسين في الابتعاد عن زيورخ، حيث غادر هوجو بول إلى الولايات المتحدة، وبدأ ترستيان تسارا يكتب المقالات حول أهداف الحركة، وراح يراسل فنانين بأعينهم في إيطاليا وفرنسا، واستطاع إقناعهم بأهمية أفكاره، وصار رئيسًا للحركة، حرص أن يصدر العديد من المطبوعات في زيورخ وباريس معًا..

كانت الحرب مصدر قلق ونشاط وتشتت، وعقب انتهائها عاد المغتربون إلى زيورخ، وتم توحيد الصف بهدف إعادة الحياة لحركة نسيها الناس تقريبًا.

الآن بعد قرن بأكمله، لم تكن الدادية التي رفعت شعار الإلغاء سوى بابًا مفتوحًا للكثير من الحركات الفنية الصاخبة التي عرفها الإنسان في كافة أشكال الإبداع البشري.

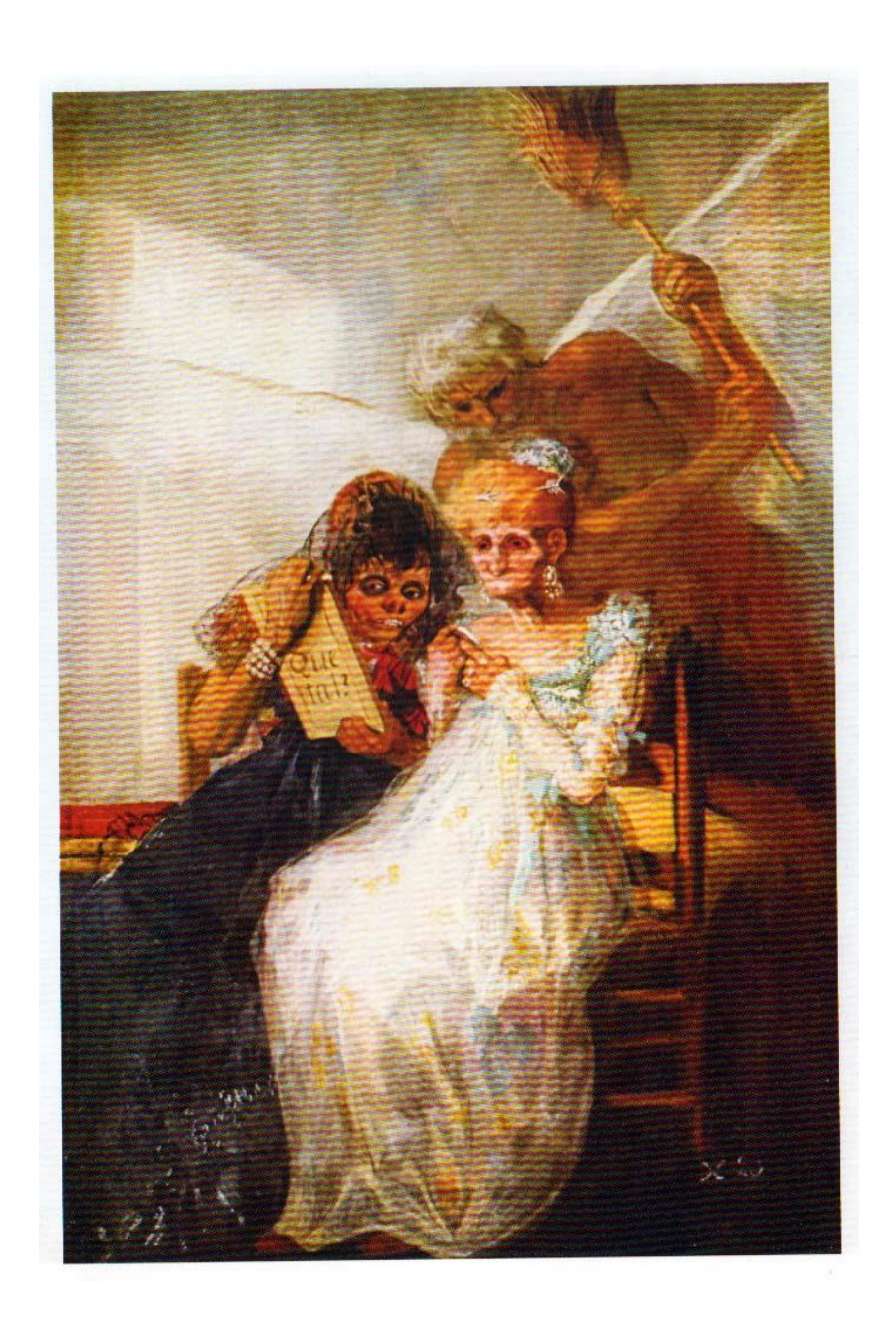
الملاحق







فرانتشيسكو دي جويا

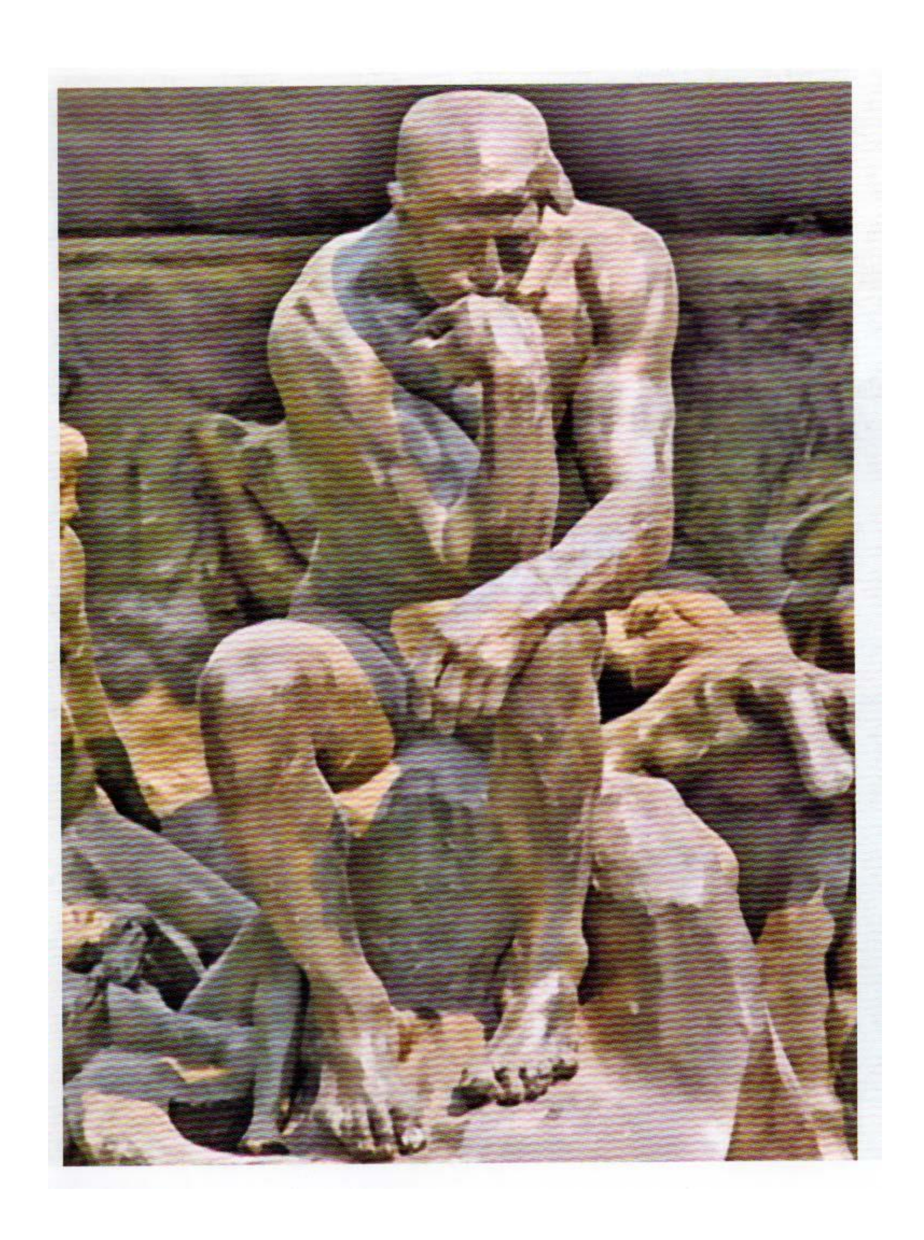

Que tal?

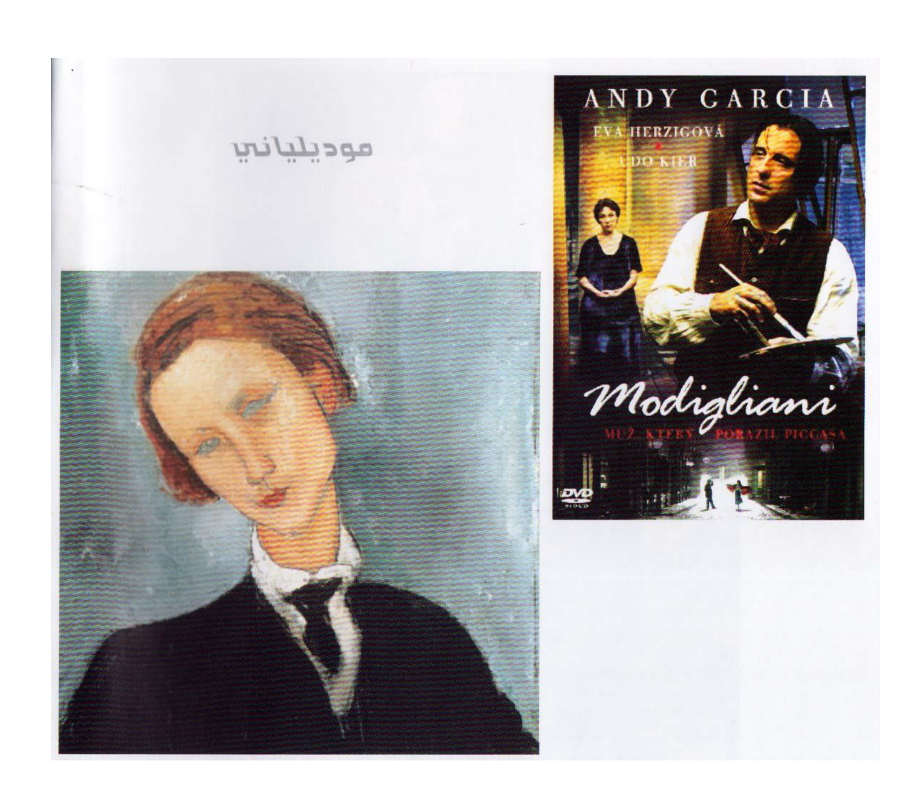


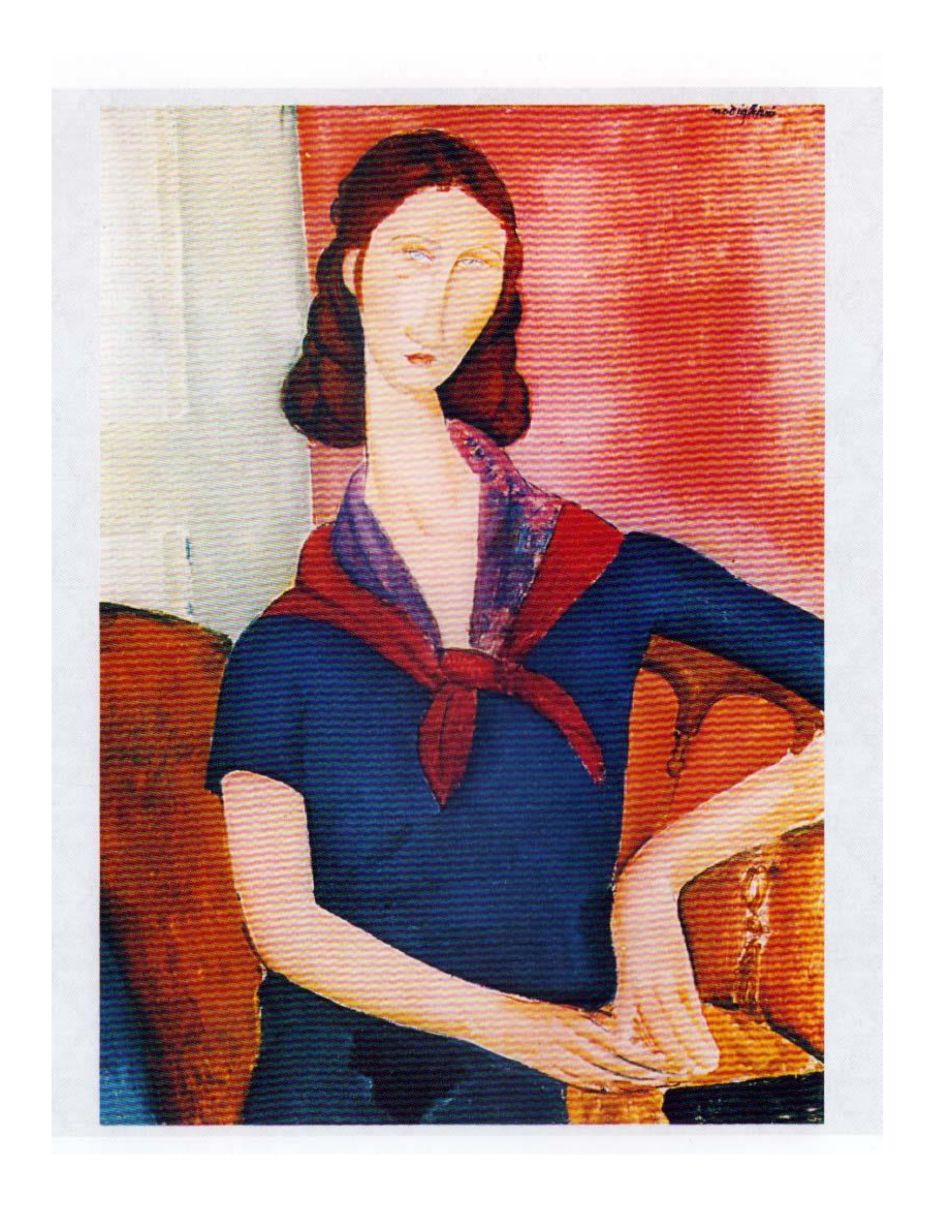


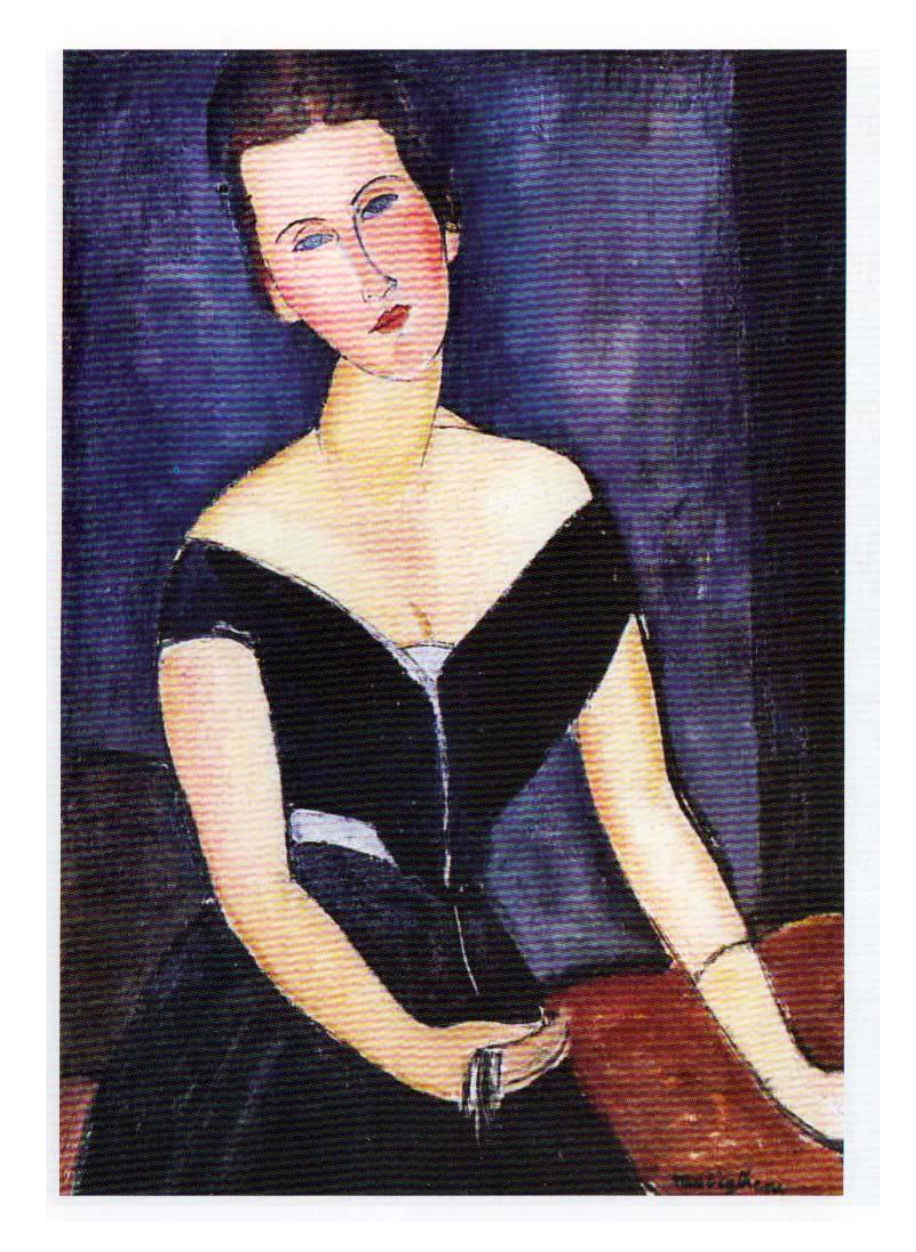

أوجست رودان
The Winter of 1885.
Auguste Rodin Met the Greatest Artist He Would Ever Know.
ISABELLE ADJANI
GÉRARD DEPARDIEU
CAMILLE CLAUDEL
A FILM BY BRUNO NUYTTEN

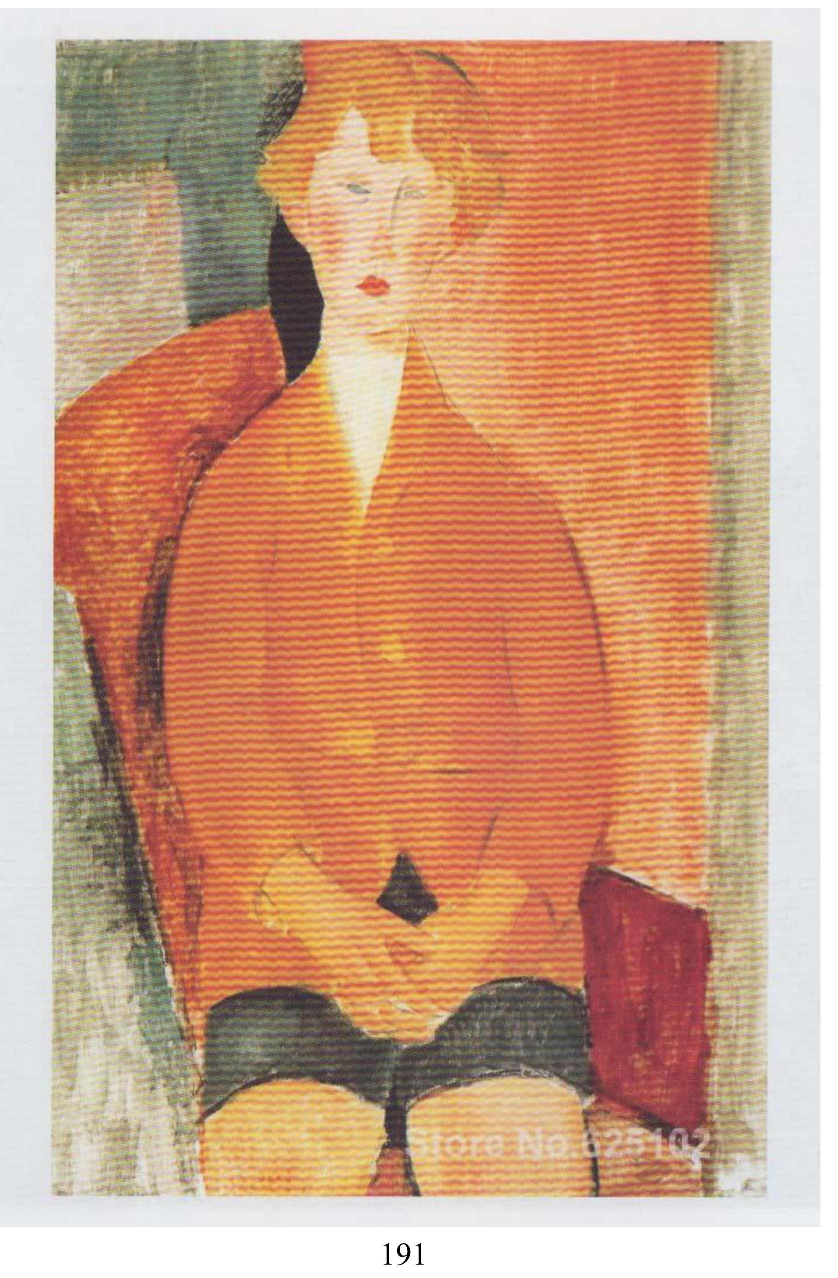





موديلياني
ANDY GARCIA
EVA HERZIGOVÁ
UDO KIER
Modigliani
MUŽ, KTERÝ PORAZIL PICCASA
DVD







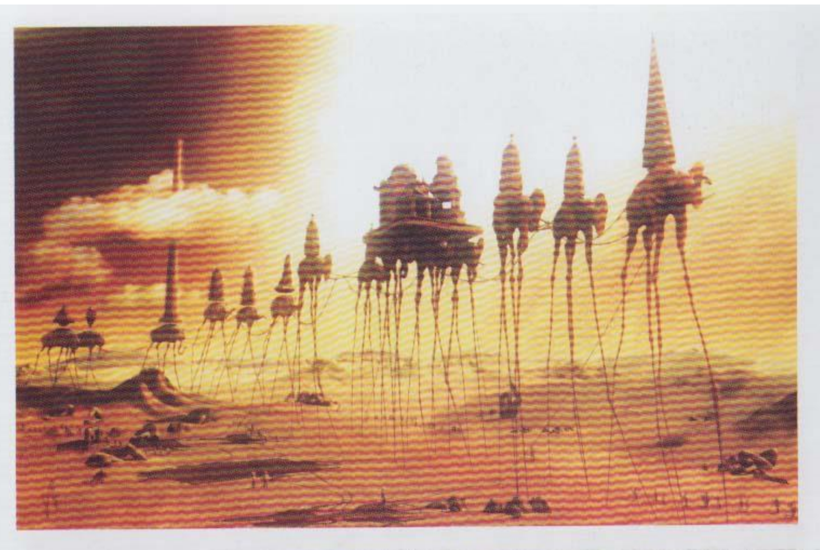





ANTHONY HOPKINS
Surviving
PICASSO




سلفادور دالي



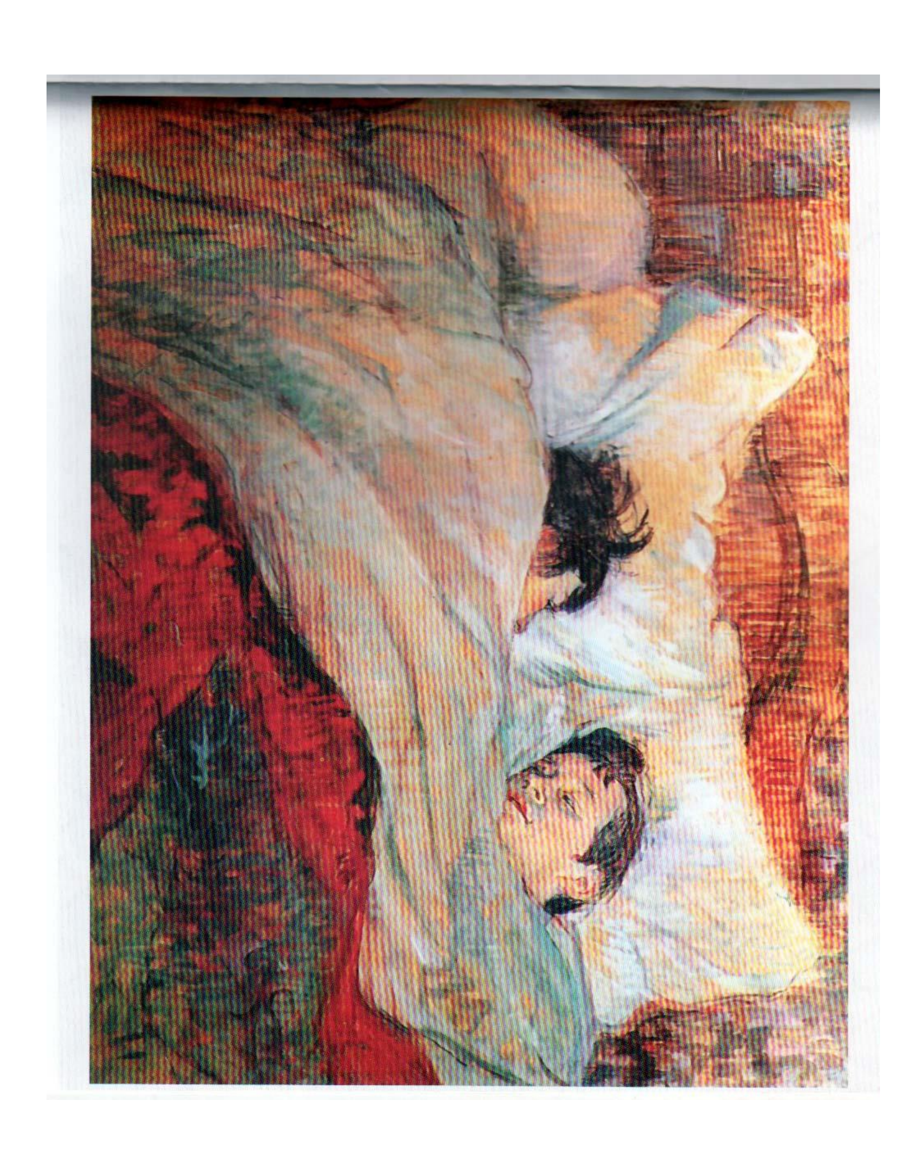







تولوز لوتريك
BAL du Moulin Rouge
MOULIN ROUGE
MOULIN ROUGE
MOULIN ROUGE
CONCERT
BAL
TOUS Les SOIRS
LA GOULUE
Jane Avril
74



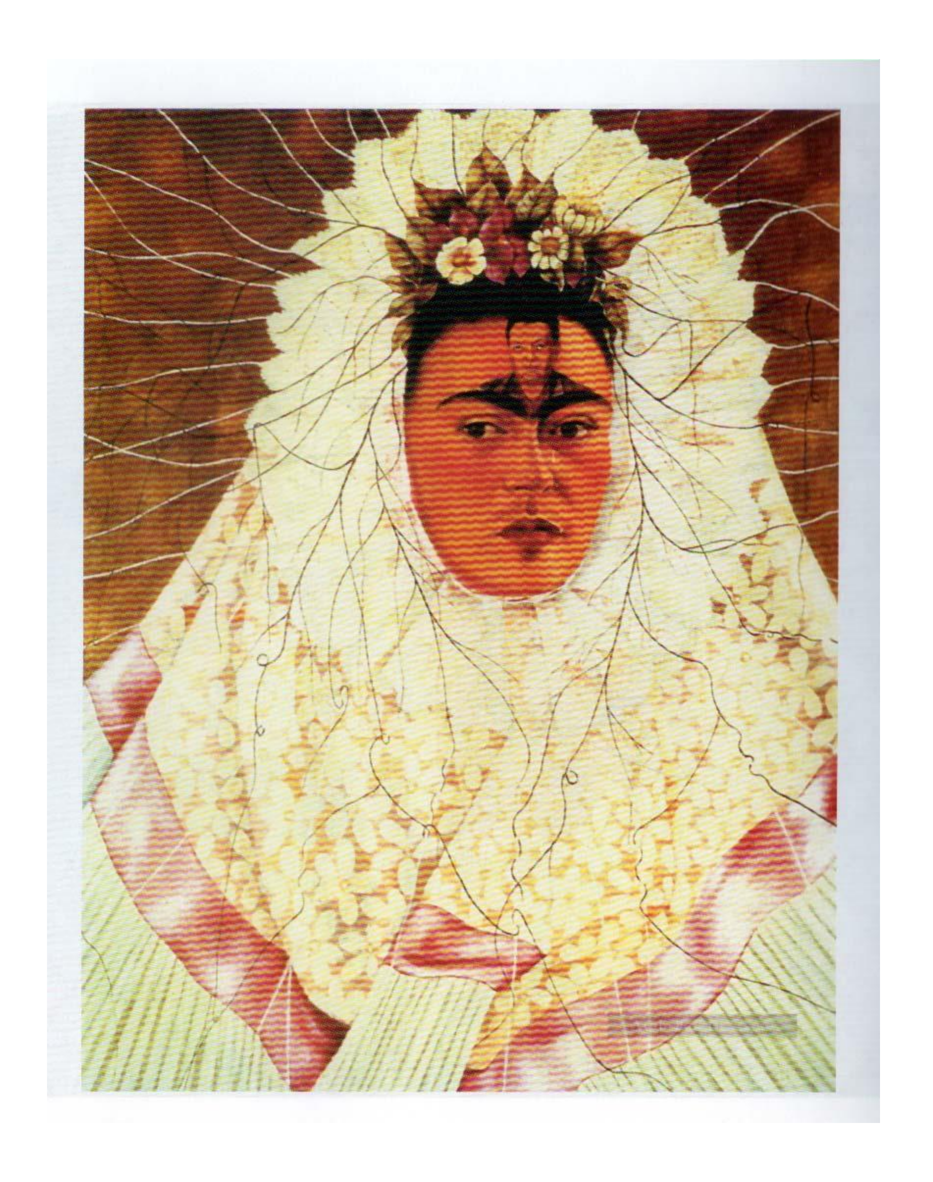





فريدا كالو
Frida







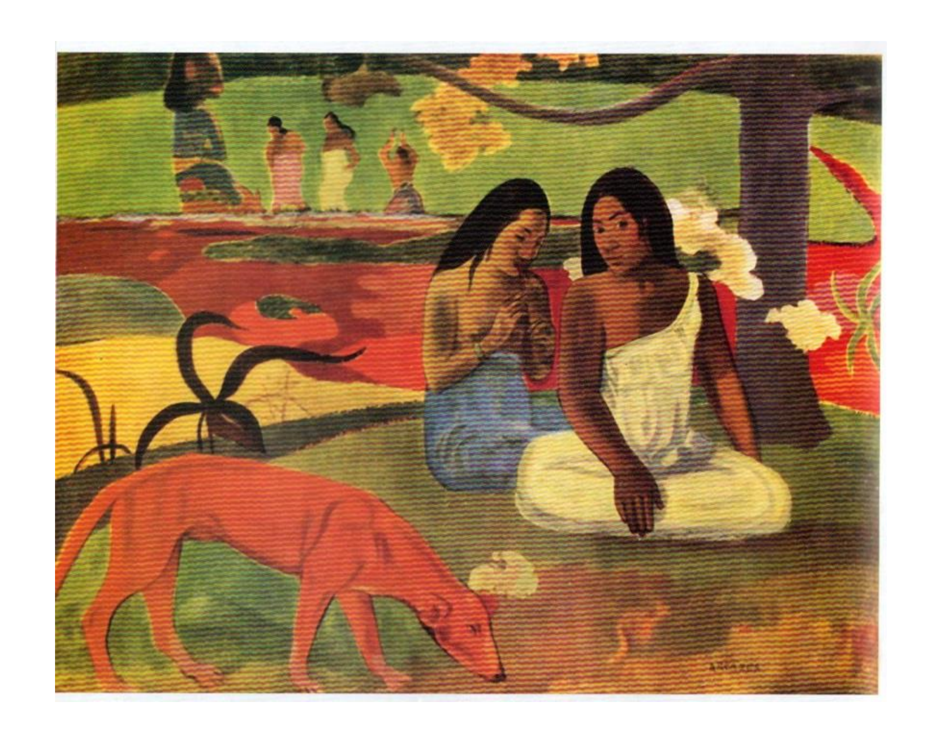

جوزيف تيرنر
MR TURNER
Meister des Lichts
82

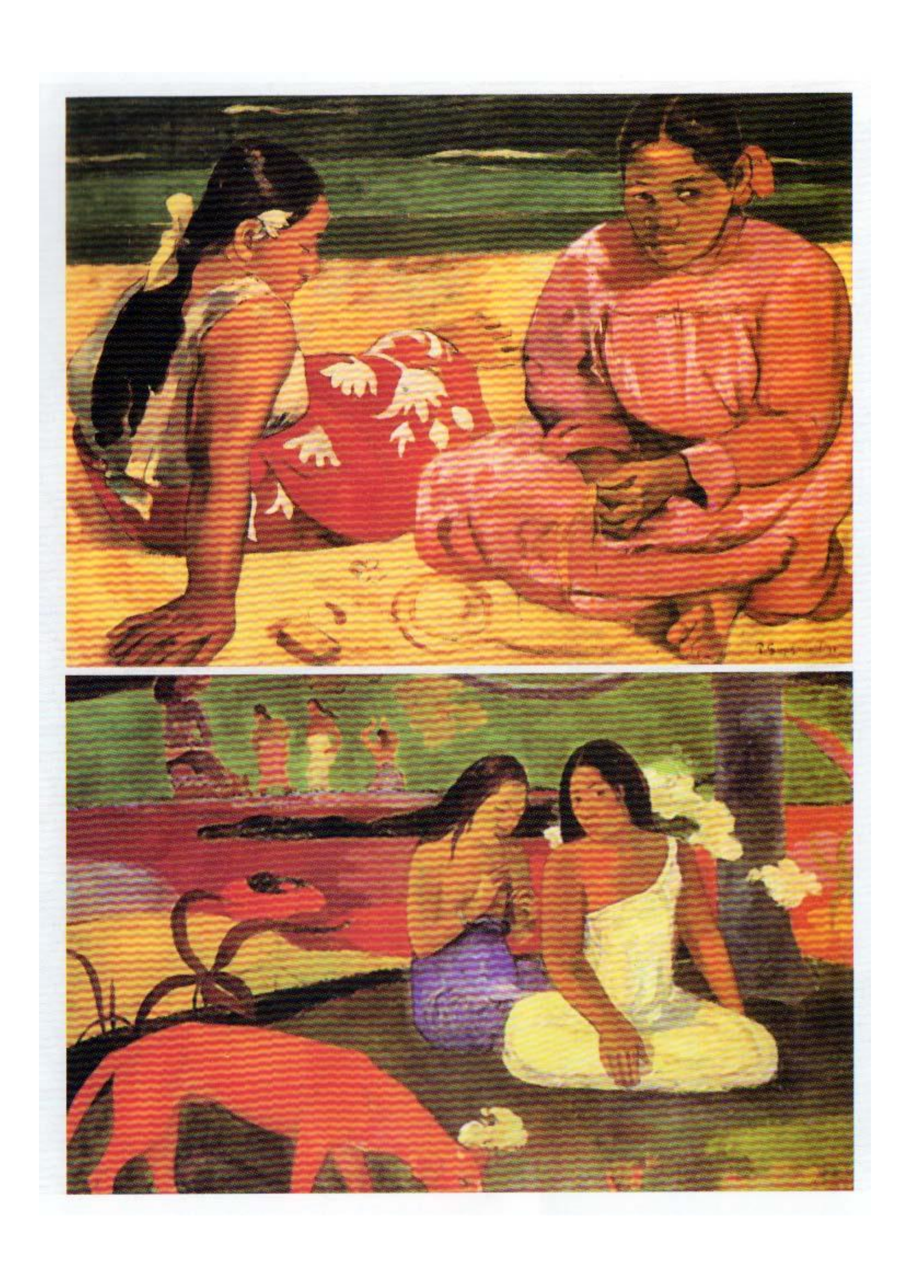


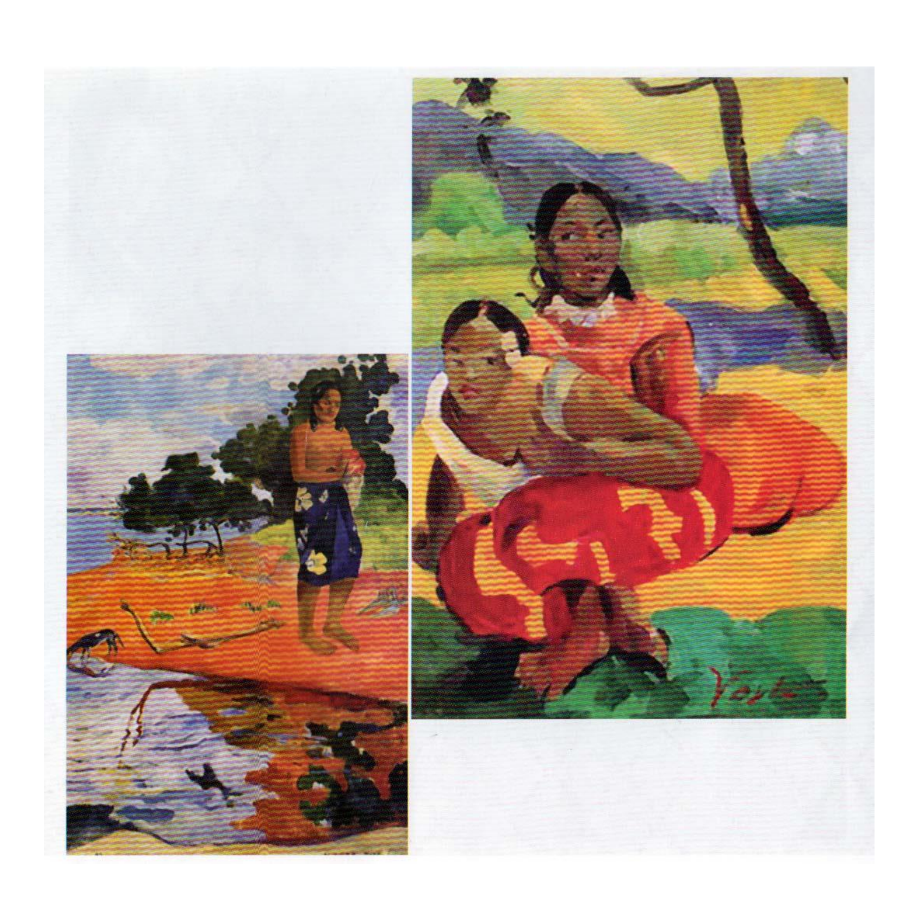




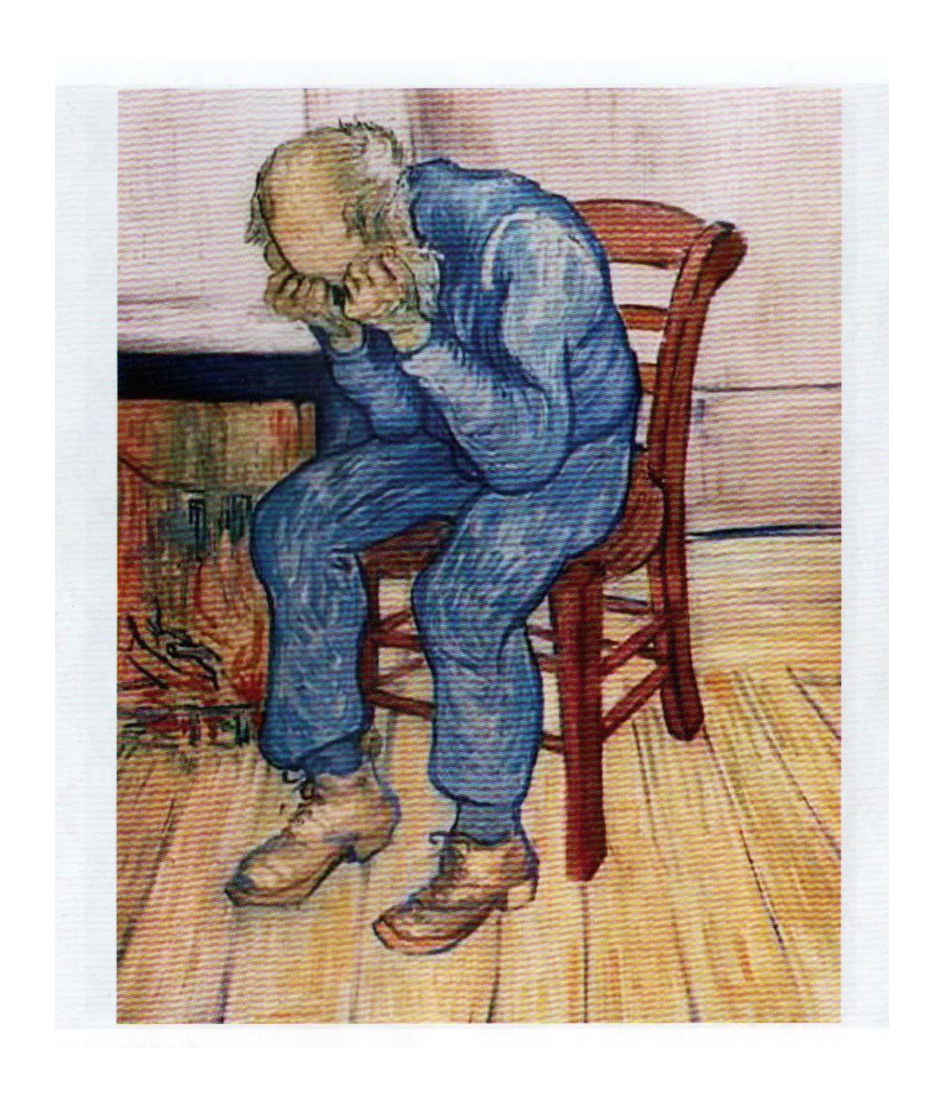

بول جوجان

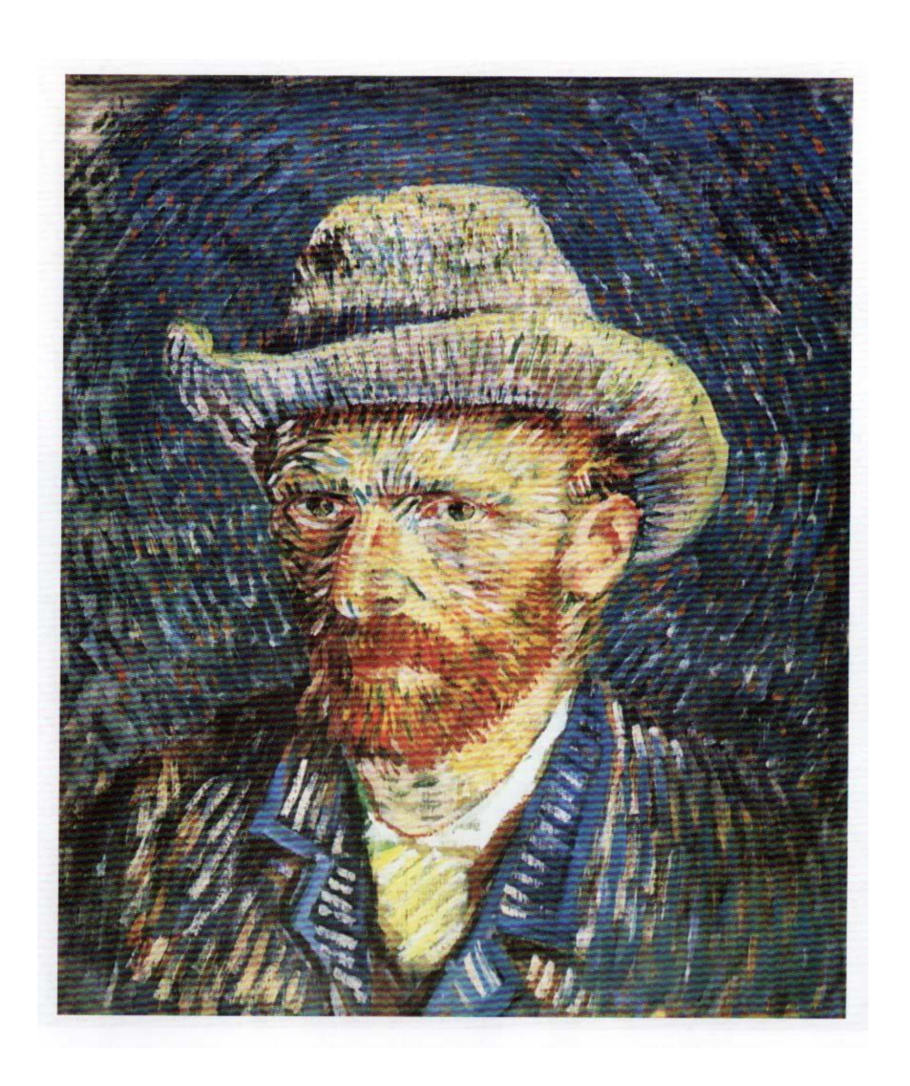


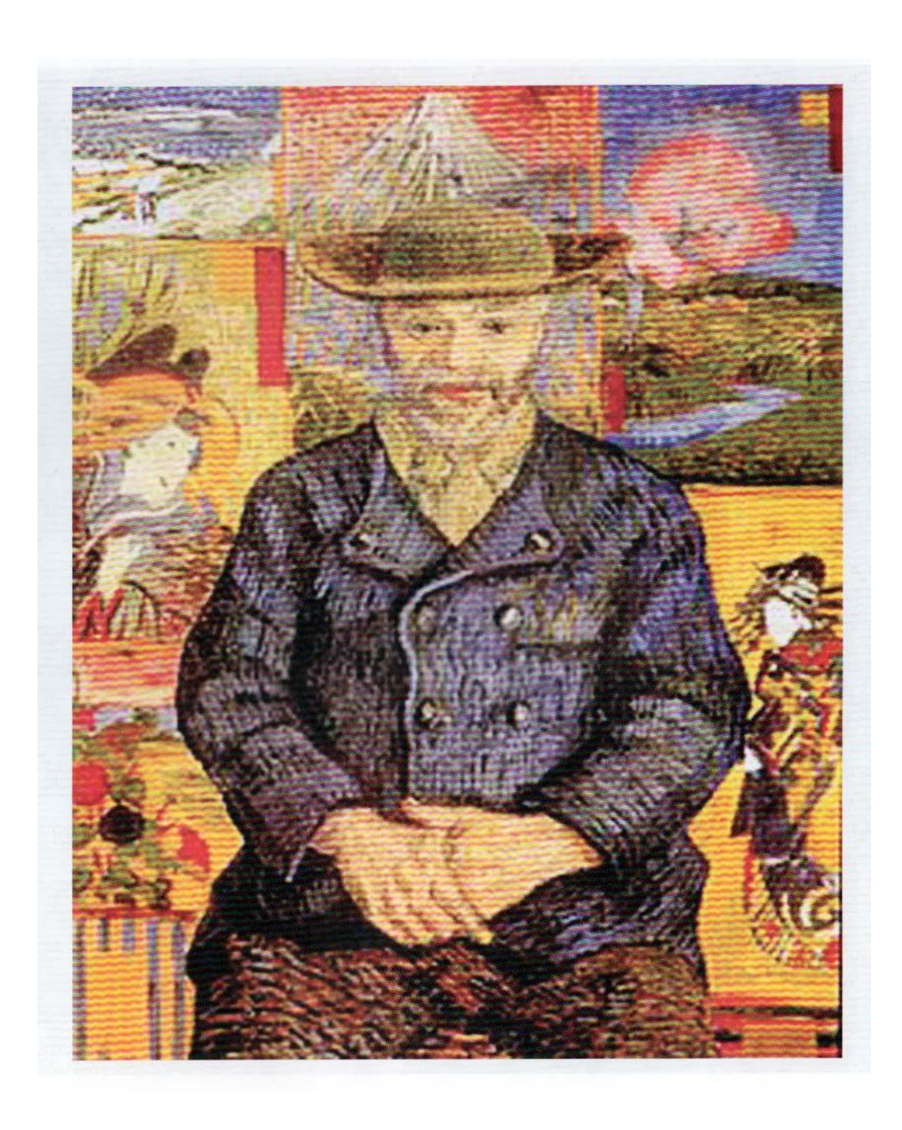


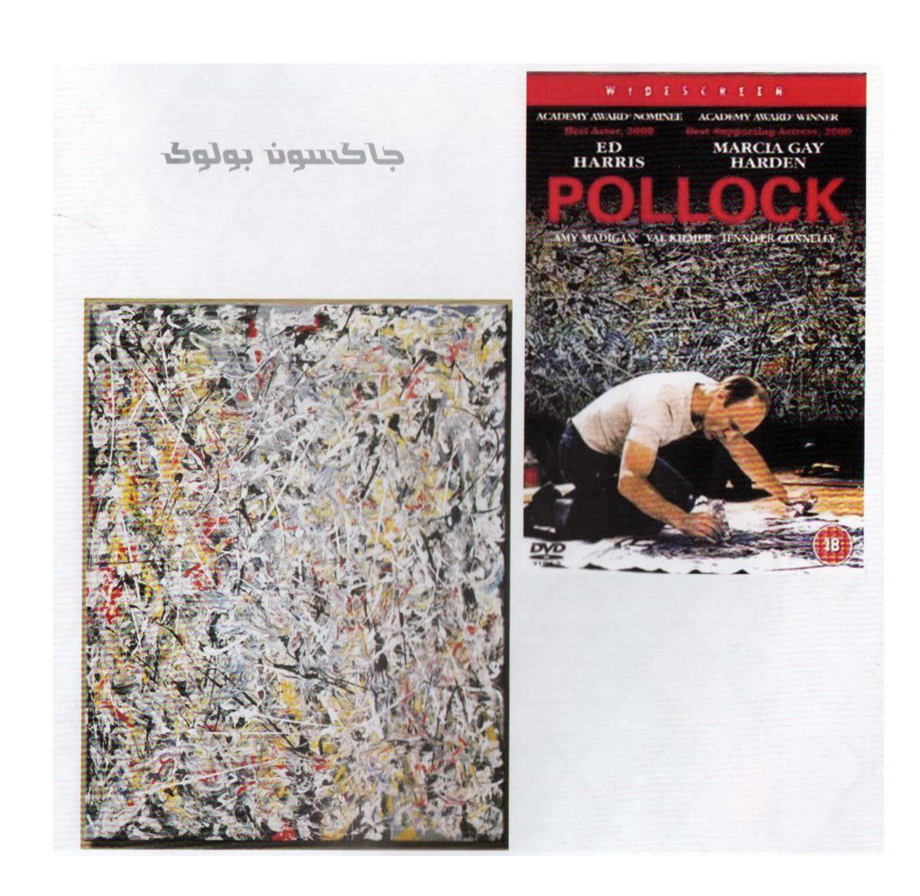


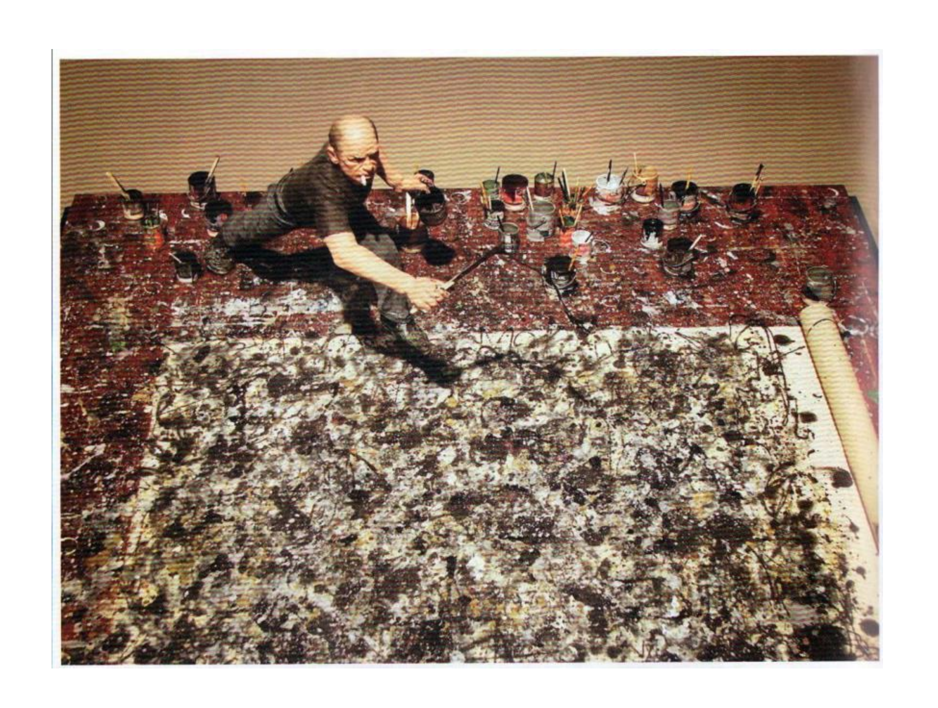

فان جوخ
JACQUES DUTRONC
ALEXANDRA LONDON
VAN GOGH
copyrighted material








جاكسون بولوك
WIDESCREEN
ACADEMY AWARD NOMINEE
Best Actor, 2000
ED
HARRIS
ACADEMY AWARD WINNER
Best Supporting Actress, 2000
MARCIA GAY
HARDEN
POLLOCK
AMY MADIGAN VAL KILMER JENNIFER CONNELLY
DVD
18

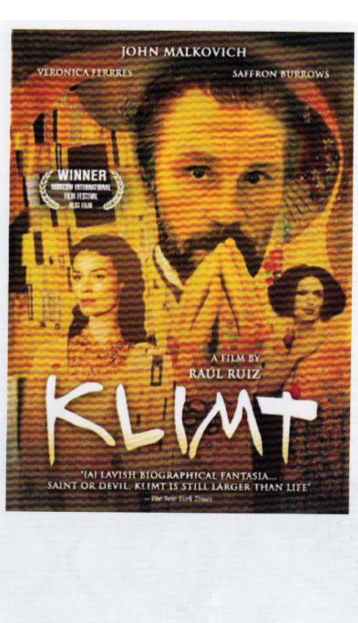






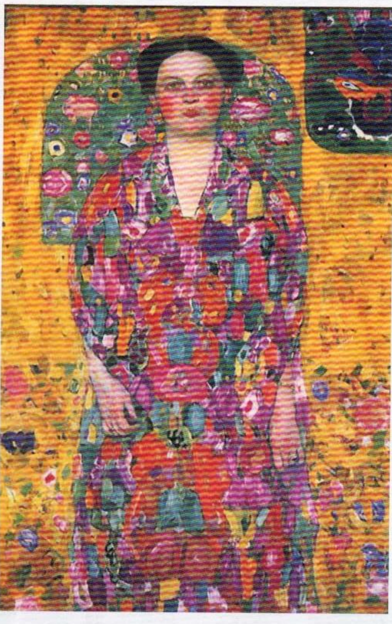
جوستاف كليمت



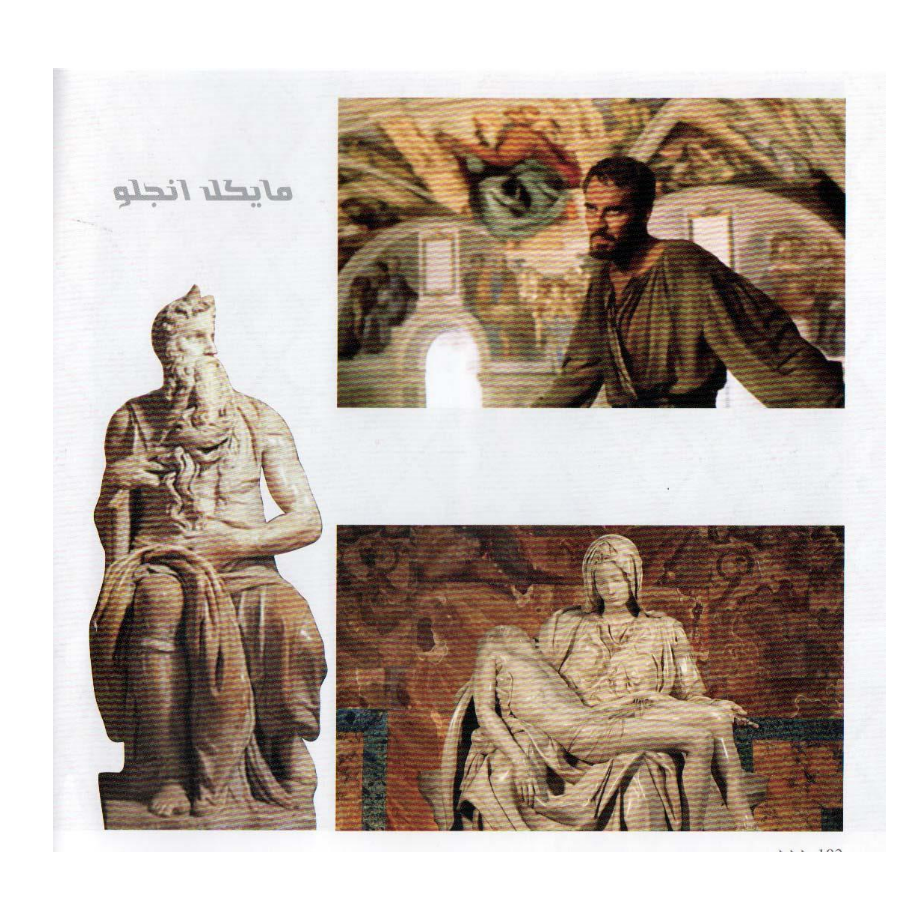


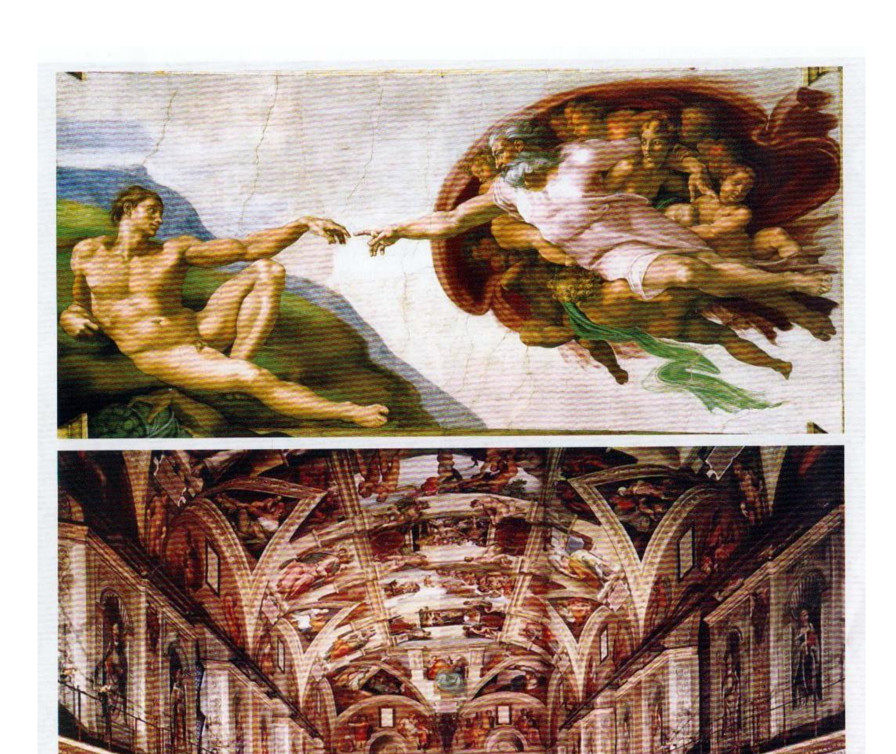









مايكل انجلو



الفهرس